



دروس في التدبير

الجزء الأول

الألوكة

سعيد مصطفى دياب

الألوكة

www.alukah.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَكَلِّمَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّهِ، فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }^١.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }^٢.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُلُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }^٣.

وبعد فإن الله تبارك تعالى أنزل القرآن هدى للناس، وشفاء لما في الصدور، وكشفًا للغموم، وراحة لكل مصدور، ودواء لكل داء، وسلوى لكل محزون.

وجعله الله تعالى عصمة لمن تمسك به الفتن، وهاديًا من الضلال، فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٠٢

٢ - سورة النساء: الآية/ ١

٣ - سورة الأحزاب: الآية/ ٧١، ٧٠

إِلَى الرُّشْدِ {، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وهو خَيْرُ جَلِيسٍ، وأفضلُ أنيسٍ، أوثقُ شافعٍ، وأكرمُ صاحبٍ، وهو سبيلُ الرفعةِ، وسببُ الزلفى،
وأمانُ الخائفين، ودليلُ الحائرين، ودستورُ الحياةِ، وحبلُ النجاةِ، لمن تمسك به.

قال الشاطبي رحمه الله:

وَأَعْنَى غَنَاءٍ وَاهِبَاءٍ مُتَفَضِّلًا ***** وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ
وَتَزْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَحُمُّلاً ***** وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يَمَلُّ حَدِيثُهُ
مِنَ الْقَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلاً ***** وَحَيْثُ الْفِتَى يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ
وَمِنَ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ يُجْنَلَى ***** هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً
وَأَجْدِرُ بِهِ سُؤلاً إِلَيْهِ مُوصَّلاً ***** يُنَاشِدُ فِي إِرْضَائِهِ لِحَبِيبِهِ

وإنما أنزل الله تبارك وتعالى كتابه ليكون منهج حياة للعباد، ودستورًا ينظم شؤونهم، ومنارًا
يستضيئون به في دروبهم، ويتبعون الله تعالى به تلاوة وتدبرًا وعملاً.

وهذه الكلمات عبارة عن دروس في التدبر، المراد منها تسليط الضوء على معنى من المعاني
العظيمة في الآية، لاستخلاص العبرة والعظة، وللخروج بدرس مستفاد منها، أسأل الله التوفيق
والسداد والقبول.

فاحرص يا رعاك الله على أن يكون لك حظٌ من كتاب الله تعالى تلاوةً، وتدبرًا، وحفظًا، عملاً،
فإنه عز الدارين، وجنةُ الدنيا، ونعيمها المقيم، وسببُ محبة الرحمن الرحيم.

واحرص على أن يظهر أثر القرآن عليك، فتعرف بليلىك إذ الناس نائمون، وبنهارك إذ الناس
يلعبون، وبجهدك إذ الناس في غفلتهم ساهون، وبعزمك إذ الناس مفرطون متهاونون.

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مَاذَا زَرَعَ الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِكُمْ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ رَيْعُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا أَنَّ الْعَيْثَ رَيْعُ الْأَرْضِ، وَقَدْ يَنْزِلُ الْعَيْثُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَيُصِيبُ الْحَشَّ فَتَكُونُ فِيهِ الْحَبَّةُ فَلَا يَمْنَعُهَا نَتْنٌ مَوْضِعِهَا أَنْ تَحْضَرَ وَتَهْتَرَّ وَتَحْسُنَ، فَيَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مَاذَا زَرَعَ الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِكُمْ؟^١

وقال وهيب بن الورد رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل لرجل ألا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي.^٢
وصحب رجلًا رجلًا شهرين فلم يره نائمًا فقال: مالي لا أراك نائمًا قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى.^٣

وقال أحمد بن الحواري رَحِمَهُ اللَّهُ: إني لأقرأ القرآن وانظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحًا بما رزقوا.^٤

وقال ذو النون المصري:^٥

منع القرآن بوعده ووعيده **** مقل العيون بليها لا تهجع
فهموا عن الملك الكريم كلامه **** فهمًا تذل له الرقاب وتخضع

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرِفَ بَلِيلَهُ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَلِيُكَاثِرَهُ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلُطُونَ، وَبِحُشْوَعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ بَاكِيًا

١ - التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٦٨)

٢ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٣ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٤ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٥ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

مَحْزُونًا حَلِيمًا حَكِيمًا سَكِينًا، وَلَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ذَكَرَ كَلِمَةً، «لَا صَخَّابًا وَلَا صَيَّاحًا وَلَا حَدِيدًا»^١.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَخُوضَ مَعَ مَنْ يَخُوضُ، وَلَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ لِحَقِّ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ فِي جَوْفِهِ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى^٢.

وقال القرطبي رحمه الله في آداب حامل القرآن: وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، فَيَفْهَمَ عَنِ اللَّهِ مُرَادَهُ وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِ، فَيَنْتَفِعَ بِمَا يَقْرَأُ وَيَعْمَلُ بِمَا يَتْلُو، فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِمَا لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ، وَمَا أَقْبَحَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ فِقْهِ مَا يَتْلُوهُ وَلَا يَدْرِيهِ، فَمَا مَثَلُ مَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ إِلَّا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا^٣.

وقال رحمه الله في باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة: وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيهِ ذَهْنَهُ وَفَهْمَهُ حَتَّى يَعْقِلَ مَا يُحَاطَبُ بِهِ. وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَقِفَ عَلَى آيَةِ الْوَعْدِ فَيَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَقِفَ عَلَى آيَةِ الْوَعْدِ فَيَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ مِنْهُ^٤.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك.

وبعد فهذا جهدي فإن أصبت فمن الله وله الفضل، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريءان، والحمد لله أولاً وآخراً.

كَتَبَهُ أَبُو عَمْرٍو سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

الدوحة في ٤ ربيع الآخر/ ١٤٣٧ هـ

١٤ يناير ٢٠١٦ م

١ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه - حديث رقم: ٣٥٥٨٤

٢ - تفسير القرطبي (١/ ٢١)

٣ - تفسير القرطبي (١/ ٢١)

٤ - تفسير القرطبي (١/ ٢٧)

مَعْنَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

مَعْنَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ هُوَ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ مَخَاطَبُ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فَتُصْغِي لَهُ بِأُذُنِ قَلْبِكَ، وَتَتَأَمَّلُهُ بَعِينَ فَوَادِكَ، فَإِذَا وَعَيْتَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلَهُ، وَفَهَمْتَ مِنْ كَلَامِهِ مَرَادَهُ، وَتَشَرَّبْتَ قَلْبُكَ مَعَانِيَهُ، فَانْهَضَ لَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، حَتَّى يُرَى الْقُرْآنَ فِي سَمْتِكَ، وَتَصْتَبِعَ بِهِ أَحْلَاقَكَ، وَيُظْهِرَ أَثْرَهُ عَلَى قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِيَنِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} ١."

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاطِرِ الْقَلْبِ إِلَى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ٢.

وَقَالَ تَعَالَى {أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} ٣.

وَقَالَ تَعَالَى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} ٤.

وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ٥.

وَقَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيَتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ. فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا.

١ - سورة القلم: الآية/ ٤، رواه أحمد- حديث رقم: ٢٤٦٠١، بسند صحيح

٢ - سورة ص: الآية/ ٢٩

٣ - سورة محمد: الآية/ ٢٤

٤ - سورة المؤمنون: الآية/ ٦٨

٥ - سورة الزخرف: الآية/ ٣

قال ابن القيم رحمه الله: فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلَعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَدْفَيْهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَالِ أَهْلِهِمَا، وَتَثُلُ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشِيدُ بُنْيَانَهُ وَتُوطِدُ أَرْكَانَهُ، وَتُثَرِّبُهُ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُخَضِّرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُثَرِّبُهُ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِيبِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُجِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوَصِّلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاعِطِ الطَّرِيقِ وَأَفَاتِحِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَأَفْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.^١

وعن أبي الحسين بن حبيش وذكر أبا العباس بن عطاء فقال: كان له في كل يوم ختمة وفي شهر رمضان في كل يوم وليلة ثلاث ختمات وبقي في ختمة يستنبط مودع القرآن بضع عشرة سنة فمات قبل ان يخطمها.

وقال أبو جعفر محمد بن عبد الله الفرغاني: قال أبو العباس بن عطاء: يا أبا جعفر لي من سنين كثيرة ذكرها كل يوم ختمة لا تفوتني ولي في شهر رمضان كل يوم وليلة ثلاث ختمات ولي ختمة منذ أربع عشرة سنة ما بلغت النصف منها يريد الفهم منها.^٢

١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٥٠)

٢ - صفة الصفوة (١/ ٥٣٣)

فَوَائِدُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

١ - فهم مراد الله تعالى من الآيات:

من فَوَائِدِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الفهم عن الله تعالى وهو مقصد عظيم من مقاصد الْقُرْآنِ؛ كما قال الله تَعَالَى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} ١.

قال ابن كثير رحمه الله: أي: نُبَيِّنُهَا وَنُوضِّحُهَا وَنُفَرِّقُهَا {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} أي: يَفْهَمُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ وَحُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ ٢.

فإن الذي لا يفهم الْقُرْآنَ لا ينتفع بما فيه، من حُجَجٍ وَبَرَاهِينٍ، وحكمٍ وأمثالٍ، وقصصٍ وأحكامٍ.

ومما يدل على أن تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ وفهم معانيه من مقاصد الشرع ما ثبت عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ» ٣.

والفهم لكتاب الله تعالى هو الذي قدم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حتى كان يجالس الأشياخ من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجلس عمر رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ» قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيْتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مَنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا...} حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمْرُنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا

١ - سورة الأنعام: الآية/ ٦٥

٢ - تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧)

٣ - رواه أبو داود- كِتَابُ الصَّلَاةِ، أَبْوَابُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَحْرِيزِهِ وَتَرْتِيلِهِ، بَابُ تَحْرِيزِ الْقُرْآنِ، حديث رقم: ١٣٩٤، والترمذي- أَبْوَابُ الْقِرَاءَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ، حديث رقم: ٢٩٤٩، بسند صحيح

ابن عباس، أَكْذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتُخِ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةٌ أَجْلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»^١.

قال ابن القيم رحمه الله:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى ***** فالعلم تحت تدبر القرآن

لذلك أشد عقوبة يمكن أن يعاقب بها إنسان في الدنيا أن يصرفه الله تعالى عن فهم كتاب الله تعالى؛ قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {سَأَصْرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} ^٢.

قَالَ: " أَنْزَعُ عَنْهُمْ فَهَمَّ الْقُرْآنِ، فَأَصْرِفُهُمْ عَنِ آيَاتِي" ^٣.

لذلك أشد الناس بِلَادَةً وَقِلَّةً فَهَمَّ هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ لأنهم أبعد الناس عن القرآن وعن تدبره.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَنَافِقِينَ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} ^٤.

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: "ثَلَاثٌ أَحْبَبْنَهُ لِنَفْسِي وَإِلَّا خَوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ" ^٥.

قال ابن القيم رحمه الله: فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه ^٦.

١ - رواه البخاري- كتاب المعازي، باب، حديث رقم: ٤٢٩٤

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ١٤٦

٣ - رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة- ما ذُكِرَ مِنَ الْفَضْلِ فِي الْمُتَفَكَّرِ فِي ذَلِكَ، حديث رقم: ٥٨

٤ - سورة محمد: الآية/ ١٦

٥ - صحيح البخاري- كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة، باب الإفتداء بسنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٩/ ٩٢)

٦ - بدائع الفوائد (١/ ١٩٤)

٢- تحقيق الخشية من الله تعالى:

ومن فوائد تدبر القرآن استحضر عظمة الله تعالى، واستشعار خشيته من جلال كلامه، وعظيم خطابه، ووقع ألفاظه، التي تكاد تنخلع لها قلوب المؤمنين حال الترهيب، وتطرب لها غاية الطرب حال الترغيب، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفَشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} ١.

وقال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} ٢.

ومن كان بالله تعالى أعلم كان له أشد خشية، لذلك أعظم الناس خشية لله تعالى هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أعلم الناس بالله تعالى وبكلامه.

ولا يتحقق ذلك أعني تأثر القلب بكلام الله تعالى وهو غافل ساهٍ لاهٍ معرضٌ عنه منشغلٌ بغيره، وهذه هي العلة في أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان يمرُّ بالآية في وزده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يعاد، يحسبونه مريضاً، وليس به مرض.

وقرأ عمر رضي الله عنه، سورة الطور إلى أن بلغ: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} ٣.

فبكى واشتدَّ بكاءه حتى مرض وعادوه.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ} " قال: كاد قلبي أن يطير.

١ - سورة الزمر: ٢٣

٢ - سورة فاطر: الآية/ ٢٨

٣ - سورة الطور: الآية/ ٧٧

٤ - رواه البخاري- كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}. سورة ق:

الآية/ ٣٩، حديث رقم: ٤٨٥٤

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرِفَ بَلِيلَهُ إِذَا النَّاسُ نَأْتَمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَلِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِحُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ بَاكِيًا مَحْزُونًا حَلِيمًا حَكِيمًا سَكِينًا، وَلَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ذَكَرَ كَلِمَةً، لَا صَخَابًا وَلَا صَيَّاحًا وَلَا حَدِيدًا.^١

وقال ذو النون المصري:^٢

منع القرآن بوعدده ووعيده **** مقل العيون بليها لا تهجع

فهموا عن الملك الكريم كلامه **** فهمًا تذل له الرقاب وتخضع

٣- تيسير العمل بالقرآن:

ومن فوائد تدبر القرآن تيسير العمل به، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُعْرَتُّكُمْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ يُتَكَلَّمُ بِهِ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى مَنْ يَعْمَلُ بِهِ».^٣

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَلَّا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، وتلا: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ دِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}.^٤

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوْا الْقُرْآنَ رَسَائِلَ مِنْ رَبِّهِمْ؛ فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ، وَيَتَفَقَدُونَهَا فِي النَّهَارِ.^٥

١ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه - حديث رقم: ٣٥٥٨٤

٢ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٣ - رواه سعيد بن منصور في التفسير - فضائل القرآن، حديث رقم: ١٢٧

٤ - سورة طه: الآية / ١٢٤

٥ - التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٥٤)

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ هَدَاهُ اللَّهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ، ثُمَّ تَلَا آيَةَ. { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }^١.

٤ - معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته:

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَبِالْجُمْلَةِ تُعْرَفُ الرَّبُّ الْمَدْعُوُّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعْرَفُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةً أُخْرَى: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ ضَرُورِيٍّ لِلْعَبْدِ مَعْرِفَتُهَا، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمُطَاعَتُهَا، فَتُشْهِدُهُ الْآخِرَةَ حَتَّى كَانَتْ فِيهَا، وَتَعْيِبُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى كَانَتْ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ. فَتُرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ فُرْقَانًا وَنُورًا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْعَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ، وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا وَبَهْجَةً وَسُرُورًا، فَيَصِيرُ فِي شَأْنِ النَّاسِ فِي شَأْنٍ آخَرَ.^٢

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهَضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتُحْتِثُهُ عَلَى التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ التَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلْمِ الْأَرَائِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدْعِ وَالْأَضَالِيلِ وَتَبْعَتِهِ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النَّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبْصِرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا لِئَلَّا يَتَعَدَّهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتُثَبِّتَ قَلْبَهُ عَنِ الرِّبْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلَ عَلَيْهِ الْأُمُورَ

١ - سورة طه: الآية / ١٢٤

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٥٠)

الصَّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّقَاةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَى فِي سَيْرِهِ تَقَدَّمَ الرَّكْبُ
وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَالْحَاقَ الْحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ. ١

القواعدُ المُثلى لتدبرِ القرآنِ

القاعدةُ الأولى

(أنتَ المُخاطَبُ بالقرآنِ)

أنتَ المُخاطَبُ بالقرآنِ الكريمِ بوعده ووعيد، بأمره ونهي، بما فيه من حكم وأمثال، بما فيه من ترغيب وترهيب، فالواجب عليك أن تحسن استقبال ما يأتيك من الله تعالى، فتستبشر بوعده، وتفرح بترغيبه، وتهفو نفسك للجنة إذا ذكرت، وتشتاق لما فيها من نعيم، وتكون أسرع الناس امتثالاً للأمر إذا أُمرت.

وترتعد فرائصك لوعيده، ويرتجف فؤادك لترهيبه، وتسيل عبراتك خوفاً من عذاب الله إذا ذكر، ويلهج لسانك بدعاء الله أن ينجيك منه: {رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} ١.

وتكون أسرع الناس اجتناباً للنهي إذا نهيت، لسان حالك: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} ٢. إذا ذُكِرَ الصالحون كنتَ أحرصَ الناسِ على أن تتحقق فيك صفاتهم، وإذا ذُكِرَ المنافقون كنتَ أحرصَ الناسِ على ألا يكون فيك شيء من صفاتهم، إذا تحقق فيك ذلك كنت في رياض القرآن النضرة، تنفيء ظلاله الوارفة، وتشرب من ينابيعه الصافية، وتشتشق عبيره العطر، حتى يخالط لحمك ودمك، فتستغني به عما سواه، ولا تجد لذتك إلا في حديثه ونجواه.

وَأَعْنَى عَنَاءٍ وَاهِبَاءً مُتَّفَضِّلاً
وَأَعْنَى عَنَاءٍ وَاهِبَاءً مُتَّفَضِّلاً
وَأَعْنَى عَنَاءٍ وَاهِبَاءً مُتَّفَضِّلاً
وَأَعْنَى عَنَاءٍ وَاهِبَاءً مُتَّفَضِّلاً

١ - سورة الفرقان: الآية/ ٦٥، ٦٦

٢ - سورة طه: الآية/ ٨٤

أَتَى رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: اعْهَدْ إِلَيَّ، فَقَالَ: "إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يُقُولُ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }، فَأَزْعِمَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ".^١

فإن العبد إذا استشعر أنه المخاطب بكلام الله تعالى، سيتأثر به حتمًا، فتفيض له عينه، ويطمئن له قلبه، كما قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }.^٢

وَمَا قَالَ تَعَالَى: { اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }.^٣

فإذا قرأت مثلًا قول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }.^٤

إذا كنت تعلم أنك مخاطب بهذه الآية، أفس تغلق عليك بابك لتعصي الله عز وجل، هل ستستترز لتذنب؟

والجواب لا.

لأنك تعلم أن الله تعالى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

لا شك أن المجاهرة بالذنب من أعظم أسباب الهلاك، ولكن المقصود من الكلام ألا تجعل الله تعالى أهون الناظرين إليك.

فإذا استحيت من الخلق فالله تعالى أولى أن تستحيي منه، والله عز وجل أحق بالمراقبة.

١ - رواه أحمد في الزهد- في فضل أبي هريرة رحمه الله تعالى، حديث رقم: ٨٦٦

٢ - سورة الرعد: الآية/ ٢٨

٣ - سورة الزمر: الآية/ ٢٣

٤ - سورة آل عمران: الآية/ ٥

القاعدة الثانية

(تحل بالفضائل وتحل عن الرذائل)

التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل له أثر عظيم جد عظيم في تدبر كلام الله تعالى، وفهم معانيه، والاتصاف بقبائح الصفات، ومساوئ الأخلاق له أثر عظيم جدًا في طمس نور البصيرة، وتبليد الشعور، وجمود العين، وقسوة القلب، وأخطر هذه الصفات على العبد، وأقبحها أثرًا على الإنسان صفة الكبر؛ كما قال الله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} ١.

قَالَ قَتَادَةُ: سَأَمْنَعُهُمْ فَهَمَّ كِتَابِي ٢.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أَنْزِعْ عَنْهُمْ فَهَمَّ الْقُرْآنِ، وَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي ٣.

والكبر سبب في حرمان العلم عمومًا كما قال مجاهد: «لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحِيٍّ وَلَا مُسْتَكْبِرٍ» ٤.

ومن شؤم الكبر على الإنسان أنه أعظم ما يحول بين العبد والإيمان، بل هو أول ذنب عصي الله تعالى به؛ كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} ٥.

ومن قبائح الصفات التي تحول بين المرء وفهم كتاب الله، وتدبر آياته، السخرية والاستهزاء بعباد الله المؤمنين، والتندر على الصالحين؛ كما قال تعالى: {قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٤٦

٢ - تفسير القرطبي (٧/ ٢٨٣)

٣ - تفسير الطبري (١٠/ ٤٤٣)

٤ - رواه البخاري تعليقًا - كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

٥ - سورة البقرة: الآية/ ٣٤

فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ
أَنْسَوُكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ { ١ .

والسحرية والاستهزاء بالمؤمنين من أخص صفات المنافقين، ومن علاماتهم التي يعرفون بها؛ كما
قال الله تعالى: { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ٢ .

ولما قالوا: (مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ)، قال
الله تعالى: { وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
تَسْتَهْزِئُونَ } ٣ .

وهذا الصنف من الناس الذين دأبوا على السحرية والاستهزاء والتهمك من عباد الله لا يكادون
يفقهون حديثًا، كما أخبر الله تعالى عنهم: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ
قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } ٤ .

قال ابن زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ... } الآية، قَالَ:
"هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ."

وهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لما قالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا؟ ما كان مقصودهم التعلم والانتفاع،
وإنما كان مقصودهم السحرية والاستهزاء.

١ - سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الآية / ١٠٨ : ١١١

٢ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الآية / ٦١

٣ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الآية / ٦٥

٤ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ: الآية / ١٦

القاعدة الثالثة

(احذر شؤم المعصية)

اجتنب الذنوب والمعاصي فإن اقتراف الذنوب ومعاقرة الآثام من أعظم الصوارف عن كتاب الله تعالى، فإذا كان الإنسان سادراً في غيِّه، مستمراً في معاصيه، مُسْرِفاً على نفسه في الذنوب والمعاصي، حالت بينه وبين الإنتفاع بكلام الله تبارك وتعالى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }^١.

وَالرَّانُ غِلافٌ يُعَلِّفُ الْقَلْبَ بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِيمَانٌ وَلَا يَنْتَفِعُ بِمَوْعِظَةٍ.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلِيَهَا مِنَ الرَّينِ الَّذِي قَدْ لَيْسَ قُلُوبُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا.^٢

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءً فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }».^٣

وعن حذيفة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ

١ - سورة الْمُطَفِّفِينَ: الآية/ ١٤

٢ - تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥٠)

٣ - رواه أحمد- حديث رقم: ٧٩٥٢، وَابْنُ مَاجَةَ- كِتَابُ الزُّهُدِ، بَابُ ذِكْرِ الذُّنُوبِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٤٢٤٤، بِسَنَدٍ حَسَنٍ

وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»^١.

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمَ الرَّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»^٢.
ربما يتوهم كثير من الناس أن الرزق هو المال فقط، وهذا فهم خاطئ، فإن الرزق أعم من ذلك بكثير، فإن العلم رزق، وحفظك لكتاب الله تعالى رزق، وفهمك لكلام الله تعالى رزق، وتدبرك لمعاني القرآن رزق.

١ - رواه مسلم - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، وَأَنَّهُ يَأْرُرُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ١٤٤
٢ - رواه أحمد - حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢٢٣٨٦، وابن ماجه - افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، بَابُ فِي الْقَدْرِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٩٠، وحسنه شعيب الأرنؤوط

القاعدة الرابعة

(رعاية الوقف والابتداء من أسباب التدبر)

معرفة الوقف والابتداء مما يعين على فهم كلام الله تعالى فهماً صحيحاً، وتدبره تدبراً سليماً، فإذا انحرف القارئ عن الجادة، فلم يدر متى يقف، ومتى يبدأ، ولم يميز بين تام الوقف وقبيحه، جعله ذلك بمنأى عن فهم القرآن، وتدبر كلام الرحمن، لأنه سيترتب على اختلال الوقف والابتداء من فساد المعنى ما يجعل التدبر محالاً أو شبه محال كما سنبين.

و(إذا قرأ القارئ وابتدأ بما لا يحسن الابتداء به، أو وقف عند كلام لا يفهم إلا بأن يوصل بما بعده، فقد خالف أمر الله تعالى بتدبر القرآن.

قال تعالى: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }^١.

وقال تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ }^٢.

وعن عبد الله بن عمر: «لَقَدْ عَشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتِي الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِيلِ السُّورَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ»، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتِي أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْشُرُهُ نَشْرَ الدَّقْلِ»^٣.

وعن عليّ بن قيس في قوله تعالى: { وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا }، قَالَ: التَّرْتِيلُ بَحْوِيدُ الْحُرُوفِ وَمَعْرِفَةُ الْوُقُوفِ^٤.

١ - سورة النساء: الآية/ ٨٢

٢ - سورة ص: الآية/ ٢٩، فضل علم الوقف والابتداء وحكم الوقف على رؤوس الآيات (ص: ٤)

٣ - رواه الحاكم- كتاب الإيمان، حديث رقم: ١٠١، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً وَمَنْ يُخَرِّجَاهُ، ورواه الطبراني في الكبير- حديث رقم: ١٣٨٨١، ومحمد بن نصر بن الحجاج المؤزني في مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: ١٧٩)

٤ - منار الهدى في بيان الوقف والابتداء (١/ ١٣)

قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: (من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء؛ إذ لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن إلا بمعرفة الفواصل، فهذا أدل دليل على وجوب تعلمه وتعليمه).^١

وَقَالَ النَّكْرَاوِيُّ: (بَابُ الْوَقْفِ عَظِيمُ الْقَدْرِ جَلِيلُ الْخَطَرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَأْتَى لِأَحَدٍ مَعْرِفَةَ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَلَا اسْتِنْبَاطُ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْهُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْفَوَاصِلِ).^٢

أَنْوَاعُ الْوَقْفِ:

قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: (الْوَقْفُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: تَامٌّ، وَحَسَنٌ، وَقَبِيحٌ.

فَالْتَّامُّ: الَّذِي يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَالْإِبْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ، وَلَا يَكُونُ بَعْدَهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ كَقَوْلِهِ: { وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } وَقَوْلِهِ: { أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }.

وَالْحَسَنُ: هُوَ الَّذِي يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْسُنُ الْإِبْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: { الْحَمْدُ لِلَّهِ }؛ لِأَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بـ { رَبِّ الْعَالَمِينَ } لَا يَحْسُنُ لِكَوْنِهِ صِفَةً لِمَا قَبْلَهُ.

وَالْوَقْفُ الْقَبِيحُ: الَّذِي لَيْسَ بِتَامٍّ وَلَا حَسَنٍ، قَوْلُهُ: { بِسْمِ اللَّهِ }، الْوَقْفُ عَلَى { بِسْمِ } قَبِيحٌ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَضَفْتَهُ).^٣

وقيل الوقف: (يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: تَامٌّ مُخْتَارٌ، وَكَافٍ جَائِزٌ، وَحَسَنٌ مَفْهُومٌ، وَقَبِيحٌ مَثْرُوكٌ).^٤

(وَالْكَافِي مُنْقَطِعٌ فِي اللَّفْظِ مُتَعَلِّقٌ فِي الْمَعْنَى، فَيَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ، وَالْإِبْتِدَاءُ أَيْضًا بِمَا بَعْدَهُ، نَحْوُ: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ }، هُنَا الْوَقْفُ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ بِمَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَكَذَا بَاقِي الْمَعْطُوفَاتِ، وَكُلُّ رَأْسِ آيَةٍ بَعْدَهَا لَامٌ كَي، وَإِلَّا بِمَعْنَى لَكِنْ، وَإِنَّ الْمَكْسُورَةَ الْمَشْدُودَةَ، وَالْإِسْتِفْهَامَ، وَبَلْ، وَالْأَلَا

١ - منار الهدى في بيان الوقف والابتداء (١٣ / ١)

٢ - الإتيان في علوم القرآن (٢٨٣ / ١)

٣ - إيضاح الوقف والابتداء (١٥٠ / ١)

٤ - المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني (ص: ٧)، البرهان في علوم القرآن (٣٥٠ / ١)

المخففة، والسين وسوف على التهديد، ونعم وبئس، وكيلا، وَعَالِبُهُنَّ كَافٍ مَا لَمْ يَتَقَدَّمَهُنَّ قَوْلٌ أَوْ قَسَمٌ^١.

ومما يحيل المعنى بسبب الوقف، الْوَقْفُ عَلَى الْمُضَافِ دُونَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الْمُسْتَنْتَى مِنْهُ دُونَ الْإِسْتِثْنَاءِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الْمَوْصُولِ دُونَ صَلْتِهِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الْمَعْطُوفِ دُونَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الْمَبْدَلِ مِنْهُ دُونَ الْبَدَلِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الْمُؤَكَّدِ دُونَ تَوْكِيدِهِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الْمَنْعُوتِ دُونَ نَعْتِهِ، وَالْوَقْفُ عَلَى الشَّرْطِ دُونَ جَزَائِهِ.

أمثلة للوقف القبيح الذي يحيل المعنى:

مِثَالُهُ الْوَقْفُ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ}٢. لأنه يوهم معنى قبيحًا في حق الله تعالى.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَأَبْوَيْهِ}، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلَهَا النَّصْفُ وَلَأَبْوَيْهِ}٣. لأنه يوهم أن الأبوين شركاء في فرض النصف مع البنت.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَسْتَحْيِي}، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي}٤. لأنه يوهم معنى قبيحًا في حق الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ}. مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ}* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}٥.

لأنه يوهم معنى قبيحًا وهو الوعيد للمُصَلِّينَ، بغير جريرة.

١ - البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٥٢)

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥٨

٣ - سورة النساء: الآية/ ١١

٤ - سورة البقرة: الآية/ ١٧

٥ - سورة الماعون: الآية/ ٤، ٥

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: { لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ }، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى }^١.

لأنَّه يُوهِمُ معنَى قَبِيحًا وهو النَّهْيُ عن قربانِ الصَّلَاةِ مُطْلَقًا.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: { قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ }^٢.

لأنَّه يُوهِمُ معنَى قَبِيحًا غيرِ مرادٍ، ولو تعمده القارئ لكان استهزاءً منه بكلامِ الله تعالى.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: { فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ }^٣.

لأنَّه يُوهِمُ معنَى قَبِيحًا غيرِ مرادٍ وهو نفيِ الألوهيةِ مُطْلَقًا.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا }^٤.

لأنَّه يُوهِمُ معنَى قَبِيحًا غيرِ مرادٍ وهو نفيِ الرسالةِ عن الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِنْ اضْطُرَّ القارئُ لِلْوَقْفِ لِأَجْلِ التَّنْفِيسِ لم يَأْتِمْ، ولكن وجب عليه أن يَرْجِعَ إِلَى مَا قَبْلَهُ حَتَّى يَصِلَهُ بِمَا بَعْدَهُ.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى لَفْظِ: { لِلْفُقَرَاءِ }، ووصله بما قبله مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } * لِلْفُقَرَاءِ }^٥.

١ - سورة النَّسَاءِ: الآية/ ٤٣

٢ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآية/ ١٧

٣ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ: الآية/ ١٩

٤ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الآية/ ١٠٥

٥ - سُورَةُ الْحُشْرِ: الآية/ ٧، ٨

لأنَّه يوهم معني قبيحًا غير مرادٍ، وهو أَنَّ الْعِقَابَ لِلْفُقَرَاءِ.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى لَفْظِ: {آمَنُوا} مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى وَوَصَلَهُ بِمَا قَبْلَهُ: {لَا يَسْتَتُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} * الَّذِينَ آمَنُوا} ١.

تَنْبِيهُ:

الْوَقْفُ يَكُونُ اخْتِيَارِيًّا وَاضْطِرَارِيًّا، (وَأَمَّا الْإِبْتِدَاءُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا اخْتِيَارِيًّا لِأَنَّهُ لَيْسَ كَالْوَقْفِ تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ، فَلَا يَجُوزُ إِلَّا بِمُسْتَقْلٍ بِالْمَعْنَى مُوفٍ بِالْمَقْصُودِ وَهُوَ فِي أَقْسَامِهِ كَأَقْسَامِ الْوَقْفِ الْأَرْبَعَةِ وَتَتَفَاوَتْ تَمَامًا وَكِفَايَةً وَحُسْنًا وَقُبْحًا بِحَسَبِ التَّمَامِ وَعَدَمِهِ وَفَسَادِ الْمَعْنَى وَإِحَالَتِهِ) ٢.

أمثلة للإبتداء القبيح الذي يحيل المعنى:

مِثَالُهُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا}، وَالْإِبْتِدَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ}؛ لِأَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بِهَذَا يَحِيلُ الْمَعْنَى، وَمَنْ تَعَمَّدَهُ وَقَصَدَ مَعْنَاهُ فَقَدْ كَفَرَ.

مِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى لَفْظِ: {مَرَضٌ}، وَالْإِبْتِدَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} ٣.

لِأَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بِهَذَا يَحِيلُ الْمَعْنَى، وَيُوْهِمُ أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَوَعَدَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا كَانَ غُرُورًا تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عَلَواً كَبِيراً.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا الْوَقْفُ عَلَى لَفْظِ: {الرَّسُولِ}، وَالْإِبْتِدَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ}، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} ٤.

١ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: آيَةُ / ١٩، ٢٠

٢ - انظر النشر في القراءات العشر (١/ ٢٣٠)

٣ - سُورَةُ الْأَحْزَابِ: آيَةُ / ١٢

٤ - سُورَةُ الْمُمتَحِنَةِ: آيَةُ / ١

لأنَّ الإبتداءَ بهذا يحيلُ المعنى، ويصيرُ تحذيرًا من الإيمانِ باللهِ تعالى عيادًا باللهِ.
ومثاله أيضًا الوقفُ على لفظ: {اليهودُ}، والإبتداءُ ب: {عزيرُ ابنُ الله}، الوقفُ على لفظ:
{النصارى}، والإبتداءُ ب: {المسيحُ ابنُ الله}، من قوله تعالى: {وقالت اليهودُ عزيرُ ابنُ الله
وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله} ١.

لأنَّ الإبتداءَ بهذا يحيلُ المعنى، ويوهم أن الله ابناً، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
ومثاله أيضًا الوقفُ على لفظ: {ذلولُ}، والإبتداءُ ب: {تثيرُ الأرضَ ولا تسقي الحرتَ}، من
قوله تعالى: {قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا ذلولٌ تثيرُ الأرضَ ولا تسقي الحرتَ مسلمةٌ لا شيةٌ
فيها} ٢.

لأنَّ الإبتداءَ بهذا يحيلُ المعنى، فيوهم أنها تثيرُ الأرضَ ولكن لا تسقي الحرتَ.

١ - سورة التوبة: الآية / ٣٠

٢ - سورة البقرة: الآية / ٧١

القاعدة الخامسة

(ليس في القرآن ترادف)

مما ينبغي على المسلم معرفته أنه ليس في كلام الله تعالى ترادف، على الصحيح من أقوال العلماء، ولا تغني كلمة عن كلمة فيه، فلو جمعت كل المترادفات على أن تأتي بكلمة تظن أنها أصلح من كلمة في كتاب الله تعالى فلن تجد إلى ذلك سبيلاً، بل ذلك محال، ولا يمكن بحال من الأحوال، وذلك لأنه ليس أي كلام بل هو كلام الملك العلام سبحانه وتعالى، قال عنه الله تعالى: {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} ١.

أحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، فكل لفظ من ألفاظه، وكل معنى من معانيه في أعلى درجات الفصاحة، وأرفع مقامات البلاغة، لا يجارى ولا يدانى.

يحيي اللفظ اليسير الكم الهائل من المعاني، وقرأ قول الله تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رأوه إليك وجاعلوه من المرسلين} ٢.

ففي هذه الآية أمران، {أرضعيه}، و{ألقيه}، ونهيان، {لا تخافي} و {لا تحزني}، وخبران، {أوحينا}، و {خفت}، و {بشارتان}، {إنا رأوه إليك}، و {جاعلوه من المرسلين}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن. فإذا قال القائل: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا} ٣.

إن المور هو الحركة كان تقريباً؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة.

١ - سورة هود: الآية / ١

٢ - سورة القصص: الآية / ٧

٣ - سورة الطور: الآية / ٩

وكذلك إذا قال: الوحي: الإعلام، أو قيل: {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} ١.

أنزلنا إليك، أو قيل: {وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ} ٢.

أي: أعلمنا، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق؛ فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام؛ فإن فيه إنزالا إليهم وإيحاء إليهم ٣.

وقال الزركشي رحمه الله: فَعَلَىٰ الْمَفْسَرِ مِرَاعَاةَ الْإِسْتِعْمَالَاتِ وَالْقَطْعُ بِعَدَمِ التَّرَادُفِ مَا أُمْكِنَ فَإِنَّ لِلتَّرَكِيبِ مَعْنَىٰ غَيْرَ مَعْنَىٰ الْإِفْرَادِ وَهَذَا مَنَعَ كَثِيرًا مِنَ الْأُصُولِيِّينَ وَفُوعَ أَحَدِ الْمُتَرَادِفِينَ مَوْقِعَ الْآخَرِ فِي التَّرَكِيبِ وَإِنْ اتَّفَقُوا عَلَىٰ جَوَازِهِ فِي الْإِفْرَادِ.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٦٣

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٤

٣ - مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ١٧، ١٨)

أمثلة لما يظن أنه من المترادف وليس كذلك

(الْخَوْفُ وَالْحَشْيَةُ):

من الألفاظ التي يظن كثير من الناس أنها من المترادف ولا يكاد اللُّغَوِيُّ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا الْخَوْفُ وَالْحَشْيَةُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ بَيْنَهُمَا بونا شاسعًا وفارقًا عظيمًا، فإن الْحَشْيَةَ هي الْخَوْفُ الشديدُ، فَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْخَوْفِ، وَلَا تَكُونُ الْحَشْيَةُ إِلَّا مِنْ عَظَمَةِ الْمَخْشِيِّ وَإِنْ كَانَ الْحَاشِي ي نفسه قَوِيًّا. وَالْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ الْحَائِفِ وَإِنْ كَانَ الْمُخَوَّفُ أَمْرًا يَسِيرًا.

لِذَلِكَ وَرَدَتْ الْحَشْيَةُ غَالِبًا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} ١.

وقال تَعَالَى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} ٢.

لِذَلِكَ فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ اللفظين في قوله: {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} ٣.

قال الزركشي رحمه الله: فَإِنَّ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ لِعَظَمَتِهِ يَخْشَاهُ كُلُّ أَحَدٍ كَيْفَ كَانَتْ حَالُهُ وَسُوءُ الْحِسَابِ رُبَّمَا لَا يَخَافُهُ مَنْ كَانَ عَالِمًا بِالْحِسَابِ وَحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَحَاسِبَ وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} وقال لموسى {لا تخف} أي لا يَكُونُ عِنْدَكَ مِنْ ضَعْفِ نَفْسِكَ ما تخاف منه من فِرْعَوْنَ.

فَإِنْ قِيلَ: وَرَدَ: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ} ؟ ٤

قِيلَ: الْحَاشِي مِنَ اللَّهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَظَمَةِ اللَّهِ ضَعِيفٌ فَيَصِحُّ أَنْ يَقُولَ يَخْشَى رَبَّهُ لِعَظَمَتِهِ وَيَخَافُ رَبَّهُ أَيْ لِضَعْفِهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَفِيهِ لَطِيفَةٌ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ

١ - سورة البقرة: الآية / ٧٤

٢ - سورة فاطر: الآية / ٢٨

٣ - سورة الرعد: الآية / ٢١

٤ - سورة النحل: الآية / ٥٠

أَقْوِيَاءُ ذَكَرَ صِفَتَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ضُعَفَاءُ وَلَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ ضُعَفَاءُ لَا حَاجَةَ إِلَى بَيَانِ ضَعْفِهِمْ ذَكَرَ مَا يُدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ {يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} وَلَمَّا ذَكَرَ ضَعْفَ الْمَلَائِكَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ {رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} وَالْمُرَادُ فَوْقِيَّةً بِالْعَظَمَةِ.^١

(الشُّحُّ وَالْبُخْلُ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُرَادِفِ، وَلَا يَكَادُ اللَّغَوِيُّ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا الْبُخْلُ وَالشُّحُّ.

فَإِنَّ الشُّحَّ هُوَ الْبُخْلُ الشَّدِيدُ، لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ}.^٢

قَالَ الرَّاعِبُ: الشُّحُّ بُخْلٌ مَعَ حِرْصٍ، وَذَلِكَ فِيمَا كَانَ عَادَةً. قَالَ تَعَالَى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ}.^٣

وَقَالَ سَبْحَانَهُ: {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ}.^٤

يَقَالُ: رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَقَوْمٌ أَشْحَةٌ، قَالَ تَعَالَى: {أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ}.^٥

{أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ}.^٦

١ - البرهان في علوم القرآن (٤ / ٧٨)

٢ - سورة النساء: الآية / ١٢٨

٣ - سورة النساء: الآية / ١٢٨

٤ - سورة الحشر: الآية / ٩

٥ - سورة الأحزاب: الآية / ١٩

٦ - سورة الأحزاب: الآية / ١٩، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٤٦)

وما بينهما من الفروق أن الشح الحرص على منع الخير، ولو كان من الغير، والبخل منع الحق فلا يؤدي البخل حق غيره عليه، قال أبو هلال العسكري: الشُّحُّ الحُرْصُ على منع الخَيْرِ، وَالبُخْلُ منع الحق.^١

(البُخْلُ وَالضَّنُّ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُتَرَادِفِ وَليست كذلك البُخْلُ وَالضَّنُّ، فَإِنَّ الضَّنَّ أَصْلُهُ أَنْ يَكُونَ بِالْعَوَارِي وَالْبُخْلُ بِالْهَيَاتِ وَهَذَا يُقَالُ هُوَ ضَنِينٌ بِعِلْمِهِ وَلَا يُقَالُ بِخَيْلٍ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِالْعَارِيَةِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْهَيْبَةِ لِأَنَّ الْوَاهِبَ إِذَا وَهَبَ شَيْئًا خَرَجَ عَنِ مِلْكِهِ بِخِلَافِ الْعَارِيَةِ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ} . وَلَمْ يَقُلْ: بِبُخِيلٍ.^٢

(الْعَامُّ وَالسَّنَّةُ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُتَرَادِفِ، وَليست كذلك، الْعَامُّ وَالسَّنَّةُ، فَإِنَّ الْعَامَّ يَطْلُقُ عَلَى الدَّعَةِ وَالرِّخَاءِ، وَالسَّنَّةُ تَطْلُقُ عَلَى الشَّدَةِ وَالْكَرْبِ وَالضِّيقِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}.^٣

فمدة دعوة نوح عليه السلام اشتملت على مشقة في الدعوة وشدة بسبب عناد قوم نوح وسخرتهم واستهزائهم بنوح عليه السلام، وما استراح نوح عليه السلام إلا بعد أن طهر الله تعالى الأرض من رجهم.

لذلك لما دعا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قُرَيْشٍ لما ضيقوا على المسلمين وآذوا المستضعفين قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِينِ يَوْسُفَ».^٤

١ - الفروق اللغوية للعسكري (ص: ١٧٦)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٤ / ٧٨)

٣ - سورة العنكبوت: الآية/ ١٤

٤ - رواه البخاري- كتاب الأذان، باب: يَهْوِي بِالتَّكْبِيرِ حِينَ يَسْجُدُ، حديث رقم: ٨٠٤، ومسلم- كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم: ٦٧٥

وقال تعالى: { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ }^١.

فوصف السنن بأنهن شداد، ووصف العام بالرخاء وأنه: فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ أي يأتيهم الغوث وَفِيهِ يَعْرِضُونَ من الرخاء والخير والبركة.

(مَدٌّ وَأَمَدٌ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَفْظَاءِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُرَادِفِ، وَليست كذلك، فإن لفظ أمد ذكر في حق المؤمنين غالباً، كما قال تعالى: { وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَمِيمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ }^٢.

وذكر لفظ: مد في حق الكفار كما قال تعالى: { وَوَمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا }^٣.

مَدٌّ وَأَمَدٌ قَالَ الرَّاعِبِيُّ: أَكْثَرُ مَا جَاءَ الْإِمْدَادُ فِي الْمَحْبُوبِ نَحْوُ: { وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ } وَالْمَدُّ فِي الْمَكْرُوهِ نَحْوُ: { وَوَمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا }.

(السَّقْيُ وَالْإِسْقَاءُ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَفْظَاءِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُرَادِفِ، وَليست كذلك، سَقَى وَأَسْقَى، فإن سقى تفيد السلاسة والسهولة واليسر، وَأَسْقَى تدل على التكلف، قال الزركشي: فَأَلَّوْا لِمَا لَا كُلْفَةَ فِيهِ وَهَذَا ذُكِرَ فِي شَرَابِ الْجَنَّةِ نَحْوُ: { وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا }^٤.

وَالثَّانِي لِمَا فِيهِ كُلْفَةٌ وَهَذَا ذُكِرَ فِي مَاءِ الدُّنْيَا نَحْوُ: { لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَدَقًا }^٥.

١ - سورة يوسف: الآية / ٤٧ : ٤٩

٢ - سُورَةُ الطُّورِ: الآية / ٢٢

٣ - سورة مريم: الآية / ٧٩

٤ - سورة الإنسان: الآية / ٢١

٥ - سُورَةُ الْجِنِّ: الآية / ١٦

وَقَالَ الرَّاعِبُ: الإِسْقَاءُ أَبْلَغُ مِنَ السَّقْيِ لِأَنَّ الإِسْقَاءَ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ مَا يَسْقِي مِنْهُ وَيَشْرَبُ وَالسَّقْيَ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يَشْرَبُ.

(الْعَمَلُ وَالْفِعْلُ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُرَادِفِ، وَليست كذلك، عَمِلَ وَفَعَلَ، فَالْأَوَّلُ يَدُلُّ عَلَى التَّرِيثِ وَالتَّمَهْلِ فِي الشَّيْءِ، وَالثَّانِي يَدُلُّ عَلَى السَّرْعَةِ، وَأَيْضًا الْعَمَلُ يَشْتَمِلُ عَلَى الْقَوْلِ وَالْفِعْلُ مَعًا، قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: فَالْأَوَّلُ لِمَا كَانَ مِنْ امْتِدَادِ زَمَانٍ نَحْوُ: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ}، {مِمَّا عَمِلْتَ أَيَدِينَا}؛ لِأَنَّ خَلْقَ الْأَنْعَامِ وَالتَّمَارِ وَالتُّرُوعِ بِامْتِدَادٍ، وَالثَّانِي بِخِلَافِهِ نَحْوُ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}، {كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}، {كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} لِأَنَّهَا إِهْلَاكَاتٌ وَقَعَتْ مِنْ غَيْرِ بَطْءٍ، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} أَي فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ وَهَذَا عَبْرَ الْأَوَّلِ فِي قَوْلِهِ: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حَيْثُ كَانَ الْمَقْصُودُ الْمُثَابَرَةَ عَلَيْهَا، لَا الْإِتْيَانَ بِهَا مَرَّةً أَوْ بِسُرْعَةٍ، وَبِالثَّانِي فِي قَوْلِهِ: {وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ}، حَيْثُ كَانَ بِمَعْنَى سَارِعُوا كَمَا قَالَ: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، وَقَوْلُهُ: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}، حَيْثُ كَانَ الْقَصْدُ يَأْتُونَ بِهَا عَلَى سُرْعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَوَانٍ.

(الْقُعُودُ وَالْجُلُوسُ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُرَادِفِ وَليست كذلك، الْقُعُودُ وَالْجُلُوسُ، قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: فَالْأَوَّلُ لِمَا فِيهِ بُنْتُ بِخِلَافِ الثَّانِي وَهَذَا يُقَالُ: قَوَاعِدُ الْبَيْتِ وَلَا يُقَالُ: جَوَالِسُهُ لِلزُّومِهَا وَلُبْنُهَا وَيُقَالُ: جَلِيسُ الْمَلِكِ وَلَا يُقَالُ: قَعِيدُهُ لِأَنَّ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ يُسْتَحَبُّ فِيهَا التَّخْفِيفُ وَهَذَا اسْتِعْمَالُ الْأَوَّلِ فِي قَوْلِهِ: {مَقْعَدِ صِدْقٍ} لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا زَوَالَ لَهُ بِخِلَافِ {تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ} لِأَنَّهُ يُجْلَسُ فِيهِ زَمَانًا يَسِيرًا.^١

وَمِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْقُعُودِ وَالْجُلُوسِ أَنَّ الْقُعُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ قِيَامٍ، وَالْجُلُوسَ يَكُونُ مِنْ اضْطِجَاعٍ.

١ - الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ (٢/ ٣٦٦)

قَالَ الْفَيْوَمِيُّ: وَاجْتُلُوسُ غَيْرُ الْقُعُودِ فَإِنَّ الْجُلُوسَ هُوَ الْإِنْتِقَالُ مِنْ سُفْلٍ إِلَى عُلوٍّ وَالْقُعُودُ هُوَ الْإِنْتِقَالُ مِنْ عُلوٍّ إِلَى سُفْلٍ فَعَلَى الْأَوَّلِ يُقَالُ لِمَنْ هُوَ نَائِمٌ أَوْ سَاجِدٌ اجْلِسْ وَعَلَى الثَّانِي يُقَالُ لِمَنْ هُوَ قَائِمٌ أَقْعُدُ.^١

وقال الخطابي: حكى لنا النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه من مرو، فمثل بين يديه وسلم؛ فقال له المأمون اجلس، فقال: يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس، قال: فكيف تقول؟ قال: قل اقعد. فأمر له بجائزة.^٢

(بَلَى وَنَعَمْ):

وَمِنْ تِلْكَ الْأَفَافِ الَّتِي يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْمُرَادِفِ وَليست كذلك، بَلَى وَنَعَمْ، فَإِنْ بَلَى تَأْتِي جَوَابًا لِاسْتِفْهَامٍ مُقْتَرِنٍ بِنَفْيٍ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِغَيْرِهِ: أَلَمْ أَحْسِنِ إِلَيْكَ؟ فيقول صاحبه: بلى. فيكون إقرارًا بإحسانه، ولو قال: نعم. كان إنكارًا لقوله.

ومثال ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى}.^٣

يروى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ قَالُوا نَعَمْ لَكَفَرُوا».^٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ}.^٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ}.^٦

١ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ١٠٥)

٢ - بيان إعجاز القرآن (ص: ٣١)

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ١٧٢

٤ - التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣١٢)

٥ - سورة الأحقاف: الآية/ ٣٤

٦ - سورة التغابن: الآية/ ٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ} ١.

قَالَ الرَّاعِبُ: بَلَى رَدُّ لِلنَّفْيِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ}، الْآيَةُ، {بَلَى مِنْ كَسْبِ سَيِّئَةٍ}؛ وَجَوَابٌ لِاسْتِفْهَامٍ مُقْتَرِنٍ بِنَفْيٍ نَحْوُ: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى}؛ وَنَعَمْ يُقَالُ فِي الْاسْتِفْهَامِ نَحْوُ: {هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ}، وَلَا يُقَالُ هُنَا بَلَى، فَإِذَا قِيلَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، فَقُلْتُ بَلَى، فَهُوَ رَدُّ لِكَلَامِهِ، فَإِذَا قُلْتُ نَعَمْ فإِقْرَارٌ مِنْكَ، انْتَهَى ٢.

وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: إِنَّمَا صَارَتْ بَلَى تَتَّصِلُ بِالْجَحْدِ لِأَنَّهَا رَجوعٌ عَنِ الْجَحْدِ إِلَى التَّحْقِيقِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ بَلٍ، وَبَلٌ سَبِيلُهَا أَنْ تَأْتِيَ بَعْدَ الْجَحْدِ كَقَوْلِكَ: مَا قَامَ أَخُوكَ بَلٌ أَبُوكَ، وَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ أَلَا تَقُومُ؟ فَقَالَ لَهُ: بَلَى، أَرَادَ: بَلٌ أَقُومُ، فزَادُوا الْأَلْفَ عَلَى بَلٍ لِيَحْسِنَ السُّكُوتُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ بَلٌ كَانَ يَتَوَقَّعُ كَلَاماً بَعْدَ بَلٍ، فزَادُوا الْأَلْفَ لِيَزُولَ عَنِ الْمَخَاطَبِ هَذَا التَّوَهُّمُ ٣.

١ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ / ٤٤

٢ - الْمَفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ (ص: ١٤٦)

٣ - تَاجُ الْعُرُوسِ (٣٧ / ٢١٣)

القاعدة السادسة

(التأسيس أولى من التأكيد)

التأسيسُ معناه: أن يكون في الكلام تشابه، أو ما يوهم التشابه، يفتضي اللفظ الثاني غير ما اقتضاه الأول، والتأكيد أن يكون الثاني مُقتضياً عين ما اقتضاه الأول.

(والتأسيس أصل، والتأكيد فرع، وحمل اللفظ على الفائدة الأصلية أولى).^١

قال الجرجاني: (التأكيد: تابع يقرر أمر المتبوع في النسبة أو الشمول، وقيل: عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله).^٢

وقال: (التأسيس عبارة عن إفادة معنى آخر لم يكن أصلاً قبله، فالتأسيس خير من التأكيد؛ لأن حمل الكلام على الإفادة خير من حمله على الإعادة).^٣

من ذلك قوله تعالى: {أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}.^٤

فعل القول بأن ضمير الفاعل المحذوف في قوله: {قَدْ عَلِمَ} يرجع إلى المصلي والمسيح، كان الكلام تأسيساً، وعلى القول بأنه يرجع إلى الله تعالى يكون في الكلام تكراراً، وتأكيداً بما بعده وهو قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}، وحمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التأكيد.

١ - الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (٢/ ١٨٥)

٢ - التعريفات (ص: ٥٠)

٣ - التعريفات (ص: ٥٠)

٤ - سورة النور: الآية/ ٤١

ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} ١.

فإن المراد بقوله: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ}، مطلق الصدقة وليس الزكاة المفروضة، لأن الزكاة
ورد ذكرها بعد ذلك بقوله: {وَأَتَى الزَّكَاةَ}، فليس ذكر الزكاة تأكيداً لقوله: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى
حُبِّهِ}، لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التأكيد.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} ٢.
للعلماء في هذه الآية عدة أقوال منها: {غَيْرَ بَاغٍ}، أي: غَيْرَ خَارِجٍ عَلَى الْأُمَّةِ بِسَيِّفِهِ بَاغِيًّا
عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ جَوْرٍ، {وَلَا عَادٍ}، أي: وَلَا عَادِيًّا عَلَيْهِمْ بِحَرْبٍ وَعُدْوَانٍ فُفْسِدُ عَلَيْهِمُ السَّبِيلَ.
والأولى أن يفسر قوله تعالى: {غَيْرَ بَاغٍ}، بأنه غَيْرُ رَاغِبٍ فِيهِ لِذَاتِهِ، وَغَيْرُ طَالِبٍ لَهُ، من
الابتغاء، مثله قوله تعالى: {فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} ٣.

{وَلَا عَادٍ}، أي: غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ قَدْرَ الضَّرُورَةِ.

قَالَ السُّدِّيُّ: (غَيْرَ بَاغٍ يَبْتَغِي فِيهِ شَهْوَتَهُ).

وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ فِي قَوْلِهِ: {غَيْرَ بَاغٍ}، قَالَ: (لَا يَشْوِي مِنَ الْمَيْتَةِ لِيَشْتَهِيَهُ وَلَا يَطْبُخُهُ، وَلَا
يَأْكُلُ إِلَّا الْعُلُقَةَ، وَيَحْمِلُ مَعَهُ مَا يُبَلِّغُهُ الْحَلَالَ، فَإِذَا بَلَغَهُ أَلْفَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: {وَلَا عَادٍ}، يَقُولُ: لَا
يَعْدُو بِهِ الْحَلَالَ) ٤.

وهذا القول الثاني أولى لأن فيه زيادة معنى عن مجرد التأكيد.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٧٧

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٧٣

٣ - سورة المؤمنون: الآية/ ٧

٤ - تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٢)

ومن ذلك قوله تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ}، فقد فسر بعضهم قوله تعالى: {وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ}، بأنهم لا يسنكرون، وقوله تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ}، أي: لا تعتال عقوبتهم وعلى هذا التفسير يكون في الكلام تكراراً يزنه عنه القرآن، والأولى تفسير ذلك لا يسنكرون ولا ينقد شرابهم، يقال: أنزف الرجل إذا نفذ شرابه.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}.^١

للمفسرين في هذه الآية قولان:

الأول: أَنَّ الطَّيِّبَ هُنَا هُوَ الْحَلَالُ، فَهُوَ تَأْكِيدٌ لَهُ؛ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ.

والثاني: أَنَّ الْحَلَالَ هُوَ الْمَبَاحُ، فَإِنَّ الطَّيِّبَ فِي أَصْلِ اللَّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُسْتَلَذِّ الْمُسْتَطَابِ؛ وَلِذَلِكَ يَحْرُمُ أَكْلُ الْحَيَوَانَ الْقَدِيرِ كَالْجَلَّالَةِ.

والقول الثاني أولى لأن فيه معنى زائداً عن مجرد التأكيد

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.^٢

قيل المراد بالاستجابة ما يشمل استجابة دعوة الإيمان، فذكر ولْيُؤْمِنُوا عطف خاص على عام للاهتمام به.^٣

والأولى تفسير: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي}، بالإنقياد والاستسلام لله تعالى بفعل الطاعات والعبادات الظاهرة، وتفسير: {وَلْيُؤْمِنُوا بِي}، بالتصديق القلبي، ليجتمع للعباد الإسلام والإيمان.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٦٨

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٨٦

٣ - التحرير والتنوير (٢/ ١٨٠)

قال فخر الدين الرازي: (إجابةُ العبدِ لله إن كانت إجابةً بالقلبِ واللِّسانِ، فذاك هو الإيمانُ، وعلى هذا التقديرِ يكونُ قوله: فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي تكررًا محضًا، وإن كانت إجابةُ العبدِ لله عبارةً عن الطَّاعاتِ كان الإيمانُ مُقدِّمًا على الطَّاعاتِ، وكان حقُّ النِّظمِ أن يقولَ: فليؤمنوا بي وليستجيبوا لي، فلم جاء على العكسِ منه؟

وجوابه: أن الاستجابةَ عبارةً عن الإنقيادِ والاستسلامِ، والإيمانُ عبارةٌ عن صفةِ القلبِ، وهذا يدلُّ على أن العبدَ لا يصلُ إلى نورِ الإيمانِ وقُوَّتهِ إلا بتقدُّمِ الطَّاعاتِ والعباداتِ).^١

١ - تفسير الرازي (٥/ ٢٦٦)

القاعدة السابعة

(من لا يعرف تصاريف الكلام لا يفهم القرآن)

قال الله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ١.

من لا يعرف تصاريف الكلام لا يفهم القرآن ولا يعرف مراد الله تعالى، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ومن لا يعرف تراكيب الكلام، ولا يعرف أصل الكلمة كيف يتأني له الفهم، وأني له أن يتدبر القرآن، ومثل هذا إذا تكلم أتى بالعجب العجاب، وأثار الدهشة والاستغراب، وصار محلا للسخرية والاستهجان، لأنه يتكلم بما لا يعلم، ويهرف بما لا يعرف.

ومثال ذلك ما قاله بعضهم في قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} ٢.

فسر بعضهم الإمام بأنه جمع أم، ولا يعرف في اللغة أن أم تجمع على إمام، بل جمع أم أمهات، كما قال تعالى: {وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ} ٣.

قال صاحب «الكشاف»: وَمِنْ بَدَعِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ الْإِمَامَ جَمْعُ أُمٍّ، وَأَنَّ النَّاسَ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأُمَّهَاتِهِمْ وَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الدُّعَاءِ بِالْأُمَّهَاتِ دُونَ الْأَبَاءِ رِعَايَةٌ حَقَّ عَيْسَى وَإِظْهَارُ شَرَفِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَأَنَّ لَا يَفْتَضِحُ أَوْلَادُ الرَّبِّ إِذْ قَالَتْ صَاحِبَةُ «الْكَشَافِ» وَكَيْتَ شِعْرِي أَيُّهُمَا أْبَدَعُ أَصِحَّةُ لَفْظِهِ أَمْ بَيَانُ حِكْمَتِهِ.

١ - سورة الرُّحُوفِ: الآية/ ٣

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٧١

٣ - سورة النساء: الآية/ ٢٣

والصواب في تفسير قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} ١.

أَنَّ المراد بالإمام هنا كِتَابُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الشَّاهِدُ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} ٢.

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّمْ رَبُّكَ أَحَدًا} ٣. ومن ذلك أيضًا ما سمعته من أحدهم يتكلم في قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ} ٤.

قال إذا سافر المسلم إلى بلاد الغرب يجب عليه أن يلبس لباسهم، وأن يجاريهم في حياتهم، قال: ودليل هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ} ٥.

فقلت له من أين أتيت بهذا الكلام فأرّم ولم ينطق بكلمة، فقلت له: ليس في الآية دليلًا على ما ذكرت، وإنما معنى الآية: لَوْ جَعَلْنَا رَسُولَنَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مَلَكًا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أَرَادُوا، لَجَعَلْنَاهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ أَمْرَهُ فَلَمْ يَدْرُوا أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ إِنْسِيٌّ، لِأَنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَةَ الْمَلِكِ بِصُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا.

ولم يدر أن لِبَسَ تختلف عن لَبَسَ، فإنه يُقَالُ: لَبَسْتُ عَلَيْهِمْ الْأَمْرَ أَلْبَسُهُ لَبَسًا: إِذَا خَلَطْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلْتَهُ مُشْكِلًا.

وَلَبَسْتُ الثَّوْبَ أَلْبَسُهُ لَبَسًا، وَأَنْ اللَّبْسُ هُوَ الْخَلْطُ، وَاللَّبَّوسُ: اسْمُ الثِّيَابِ.

١ - سورة الإسراء: الآية / ٧١

٢ - سورة الزمر: الآية / ٦٩

٣ - سورة الكهف: الآية / ٤٩

٤ - سورة الأنعام: الآية / ٩

٥ - سورة الأنعام: الآية / ٩

قال ابن فارس: (لَبَسَ) اللَّامُ وَالْبَاءُ وَالسِّينُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى مُخَالَطَةٍ وَمُدَاخَلَةٍ. مِنْ ذَلِكَ لَبَسْتُ الثَّوْبَ أَلْبَسُهُ، وَهُوَ الْأَصْلُ، وَمِنْهُ تَتَفَرَّغُ الْفُرُوعُ. وَاللَّبْسُ: اخْتِلَاطُ الْأَمْرِ؛ يُقَالُ لَبَسْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ أَلْبَسُهُ بِكسرها. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} ١.
وَفِي الْأَمْرِ لَبَسَةٌ، أَي لَيْسَ بِوَاضِحٍ وَاللَّبْسُ: اخْتِلَاطُ الظَّلَامِ. ٢

١ - سورة الأنعام: الآية/ ٩

٢ - مقاييس اللغة (٥/ ٢٣٠)

القاعدة الثامنة

(القرآن ليس له ظاهر وباطن)

ليس للقرآن ظاهر وباطن كما يزعم الباطنية الملاحدة، والروافض المجوس، والصوفية الضلال، وإنما هو ظاهر ظهور الشمس، وواضح وضوح النهار، ولا شك أن التفسير الباطني للقرآن تلاعب بكتاب الله تعالى، وقول على الله تعالى بغير علم، وافتراء عليه سبحانه، ويصل أحيانا إلى الضلال المبين، والكفر الصريح، كما سنبين مما نسوقه من أمثلة على ذلك.

التفسير الباطني:

معنى التفسير الباطني:

هو تفسير القرآن الكريم على معان مخالفة لظاهر القرآن الكريم، دون دليل أو شبهة من دليل.

ومن ذلك: تفسير الروافض لقول الله تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك} ١.

قالوا: أي: {لئن أشركت} بين أبي بكر وعمر، وعلي في الخلافة.

وقالوا في قوله تعالى: {إن الله يأمركم أن تدبجوا بقره} ٢.

قالوا: المراد عائشة، وقالوا في قوله: {فقاتلوا أئمة الكفر} ٣.

قالوا: هم طلحة والزبير.

وقالوا في قوله تعالى: {مرج البحرين يلتقيان} ٤.

١ - سورة الزمر: الآية/ ٦٥

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٦٧

٣ - سورة التوبة: الآية/ ١٢

٤ - سورة الرحمن: الآية/ ١٩

وقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} ١.

قالوا: {مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ}، هما علي وفاطمة، و {اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}، هما الحسن والحسين.

وقالوا: إنما وليكم في قوله: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} ٢.

قالوا: هو علي.

وقالوا في قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} ٣.

قالوا: المراد أبو بكر وعمر.

وقالوا في قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ

هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} ٤.

حيث يفسرون "أو بَدِّلْهُ" بمعنى أو بَدَّلْ علياً. ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام

مسوقاً في شأن خلافته وولايته.

ومن التفسير الباطني تفسير بعضهم لقول الله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ} ٥.

أن المراد بذلك بيان بن سمعان وأنه مذكور في القرآن، وبيان بن سمعان هذا من بني تميم، ظهر

بالعراق وكان يقول بألوهية علي بن أبي طالب، وقتله خالد بن عبد الله القسري، وأحرقه بالنار.

وقالوا في قول الله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} ٦.

١ - سورة الرحمن: الآية/ ٢٢

٢ - سورة المائدة: الآية/ ٥٥

٣ - سورة المسد: الآية/ ١

٤ - سورة يونس: الآية/ ١٥

٥ - سورة آل عمران: ١٣٨

٦ - سورة الطور: الآية/ ٤٤

أن المراد بهذه الآية هو: أبو منصور الكسفي الذي تنسب إليه فرقة المنصورية.
وليس هناك ضلال أبين من هذا، ولا انحراف عن الدين أوضح منه.

التفسير الإشاري:

ومن التفسير الباطني التفسير الإشاري، أو هو قريب منه جدًا، وَمِنْ ذَلِكَ تَفْسِيرُ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ
اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ فَقَدْ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} ١.
أي: أضدادًا، قَالَ: "وَأَكْبَرُ الْأَنْدَادِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، الْمُتَطَلِّعَةُ إِلَى حُطُوظِهَا وَمُنَاهَا بِغَيْرِ
هُدًى مِنَ اللَّهِ." ٢.

وهذا مخالف للظاهر من الآية فإن المراد بالأنداد في الآية الأصنام، والمعبودات التي كان يعبدونها
المشركون.

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} ٣.

"لَمْ يُرِدِ اللَّهُ مَعْنَى الْأَكْلِ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ مَعْنَى مُسَاكِنَةِ الْهَمَّةِ لِشَيْءٍ هُوَ غَيْرُهُ، أَي: لَا تَهْتَمَّ
بِشَيْءٍ هُوَ غَيْرِي، فَأَدَمُ لَمْ يُعْصَمَ مِنَ الْهَمَّةِ وَالتَّدْبِيرِ فَلَحِقَهُ مَا لَحِقَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ." ٤
وهذا الكلام مخالف لما أجمع عليه المفسرون من أن المراد بالآية النهي عن الأكل من هذه الشجرة
في الحقيقة.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} ٥.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢

٢ - تفسير التستري (ص: ٢٧)

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٣٥

٤ - تفسير التستري (ص: ٢٩)

٥ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥٧

قَالَ: "رَأْسُ الطَّوَاعِيَةِ كُلُّهَا النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ هَوَى النَّفْسِ، فَإِنْ أَحْسَسَ مِنْهَا بِمَا تَهْمُ بِهِ أَلْقَى إِلَيْهَا الْوَسْوَسَةَ".^١

وهذا كلام مخالف لظاهر القرآن، وهو من شطحات الصوفية، فإنه قول بغير علم، بل ضرب من الهزبان، لا يجوز أن يفسر به كلام الله تعالى.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}.^٢

قال: أي أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس.^٣

ولا شك أن هذا الكلام مخالف لما هو معلوم عند المفسرين بل عند عموم المسلمين، وليس عليه إثارة من علم، وإنما قاله لأنه يعتقد أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن الباطن هو علم الخواص، وهذا اعتقاد أقل ما يقال فيه أنه أبعد ما يكون عن هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهدي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِمْ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}.^٤

قال: ظاهرها مكة، وباطنها القلب، ومن حوله الجوارح. فأنذرهم لكي يحفظوا قلوبهم وجوارحهم عن لذة المعاصي واتباع الشهوات.^٥

وهو قول ظاهر البطلان، متهدم البنيان، متهالك لا ينبغي التعويل عليه، وليس فيه ما يستحسن، بل هو قول على الله تعالى بغير علم، وقد حرم الله القول بغير علم؛ قال الله تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا

١ - تفسير التستري (ص: ٣٧)

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٩٦

٣ - تفسير التستري (ص: ٥٠)

٤ - سورة الشورى: الآية/ ٧

٥ - تفسير التستري (ص: ١٣٨)

حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {١}

وقد سردت هذه الأمثلة حتى لا تغتر بقولٍ لقائلٍ في كتابِ الله تعالى حتى تعلم هل عليه دليل؟
أو أن صاحبه ألقى به على عواهنه، وقاله بغير مسند.

ولتعلم بطلان القول بأن لكل آية من القرآن ظاهرًا وباطنًا.

ولتعلم أن هذا القول فتح باب شرٍ على المسلمين، وضل به فئام، وزلت فيه أقدام.

القاعدة التاسعة

(ليس في القرآن شيء زائد)

من الخطأ الكبير اعتقاد أن في القرآن شيء زائد، أو أن فيه الفاظاً يمكن الاستغناء عنها، ولا يشفع أبداً لمن قال ذلك أنه يقصد أنها زائدة من حيث الإعراب، بل كل كلمة في مكانها تماماً، ولا يعني عنها غيرها، وليس في القرآن شيء زائد، وليس فيه شيء ناقص، وسنعرف الآن كم بين التعبيرين من تفوات، وكم بينهما من البون الشاسع، التعبير القرآني، وما يقوله بعض المفسرين والنحاة من أنه أصل الكلام بعد الاستغناء عن حرف أو لفظ، وسأذكر خمس آيات نتناولها بالدراسة لبيان فساد القول بأن القرآن فيه شيء زائد.

الآية الأولى:

ومن تلك الآيات التي قال عنها بعضهم أن فيها لفظاً زائداً قول الله تعالى: {قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ١.

في هذه الآية لفظ: {أَلَّا}، وهي مكونة من (أَنْ) و (لَا) وادغمت النون في لا فصارت {أَلَّا}، وقد زعم بعضهم أن لفظه: (أَنْ) زائدة.

قال الأخفش: (ف {أَنْ} هَاهُنَا زَائِدَةٌ كَمَا زِيدَتْ بَعْدَ «فَلَمَّا» وَ«لَمَّا» وَ«لَوْ»، فَهِيَ تُزَادُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرًا، وَمَعْنَاهُ: (وَمَا لَنَا لَا نُقَاتِلُ) فَأَعْمَلَ «أَنْ» وَهِيَ زَائِدَةٌ، كَمَا قَالَ: "مَا أَتَانِي مِنْ أَحَدٍ فَأَعْمَلَ مِنْ" وهي زائدة وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ غَطْفَانُ لَا دُئُوبَ لَهَا ***** إِذَنْ لَأَلَامَ دُؤُو أَحْسَابِهَا عَمْرًا

وَالْمَعْنَى: لَوْ لَمْ تَكُنْ غَطْفَانُ لَهَا دُئُوبٌ. «وَلَا» زَائِدَةٌ وَأَعْمَلَهَا) ٢.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٤٦

٢ - معاني القرآن للأخفش (١/ ١٩٤)

قال الرازي: (وهذا ضعيف، لأنَّ القولَ بِثبوتِ الزِّيَادَةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ خِلَافُ الْأَصْلِ).^١

وقال الإمام الطبري رحمه الله: (وَأُنْكَرَ مَا قَالَ هَذَا الْقَائِلُ مِنْ قَوْلِهِ الَّذِي حَكَيْنَا عَنْهُ آخَرُونَ، وَقَالُوا: غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَجْعَلَ «أَنَّ» زَائِدَةً فِي الْكَلَامِ وَهُوَ صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى وَبِالْكَلامِ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، قَالُوا: وَالْمَعْنَى: مَا يَمْنَعُنَا إِلَّا نُقَاتِلُ؟ فَلَا وَجْهَ لِدَعْوَى مُدَّعٍ أَنَّ «أَنَّ» زَائِدَةٌ، وَلَهُ مَعْنَى مَفْهُومٌ صَحِيحٌ.

قَالُوا: وَأَمَّا قَوْلُهُ: «لَوْ لَمْ تَكُنْ غَطْفَانُ لَا دُئُوبَ لَهَا» فَإِنَّ «لَا» غَيْرُ زَائِدَةٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لِأَنَّهُ جَحْدٌ، وَالْجَحْدُ إِذَا جُحِدَ صَارَ إِثْبَاتًا. قَالُوا: فَقَوْلُهُ: «لَوْ لَمْ تَكُنْ غَطْفَانُ لَا دُئُوبَ لَهَا» إِثْبَاتُ الدُّئُوبِ لَهَا، كَمَا يُقَالُ: مَا أَخْوَكَ لَيْسَ يَفُومٌ، بِمَعْنَى: هُوَ يَفُومٌ).^٢

وقال صاحب الدر المصون: (وهذا المذهب ضعيف لأنَّ الأصلَ عدمُ الزيادة، فلا يُصارُ إليها دون ضرورة).^٣

ومعنى الآية: وما يمنعنا أنْ لَا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا؟ أو يكون المعنى وأي فائدةٍ وأي غرضٍ لنا في ترك القتالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا؟

وهذا المعنى - وهو المنع على التقدير الأول، والفائدة والغرض على التقدير الثاني - لا يتحقق مع الزعم بأن "أَنَّ" زائدة.

١ - تفسير الرازي (٦/ ٥٠٣)

٢ - تفسير الطبري (٤/ ٤٤٥)

٣ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٢/ ٥١٨)

قال النيسابوري: (وعن الفراء أن الكلام محمول على المعنى لأن قولك «ما لك لا تقاتل» معناه ما منعك أن تقاتل، فلما ذهب إلى معنى المنع حسن إدخال «أن» فيه.

وعن الكسائي: واستحسنه الفارسي أن التقدير أي شيء لنا وأي داع أو غرض في ترك القتال).^١

الآية الثانية:

ومن تلك الآيات التي قال عنها بعضهم أن فيها لفظاً زائداً قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}.^٢

قال الأحفش: (وتفسيره: {فَقَلِيلًا يُؤْمِنُونَ} و"ما" زائدة كما قال {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} يقول: "فَبِرَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ" وقال {إِنَّهُ لِحَقِّ مِثْلِ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} أي: لِحَقِّ مِثْلِ أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ وزيادة "ما" في القرآن والكلام نحو ذا كثير. قال:

لَوْ بَابَانَيْنِ جَاءَ يَخْطُبُهَا **** خُضِبَ مَا أَنْفُ خَاطِبٍ بِدَمٍ

أي: خُضِبَ بِدَمٍ أَنْفُ خَاطِبٍ).^٣

وقوله: «بَابَانَيْنِ» مثنى «أَبَانُ» وهما جبلان الأول: أَبَانُ الأبيض، والثاني أَبَانُ الأسود.

وقيل: هما أَبَانُ ومتالع، غلب أحدهما، كما قالوا العمران والقمران.

وقال السيوطي: {فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}، مَا زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْقِلَّةِ أَيَّ إِيمَانِهِمْ قَلِيلٌ جِدًّا).^٤

ونقول (مَا) من ألفاظ العموم وهي هنا مبتدأ تفيد أن ما يؤمنون به قليل، وعلى هذا يكون معنى الكلام: فإيماناً قليلاً ذَلِكَ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ، ويحتمل أن يكون المراد بالقليل هنا نفي الجميع.

١ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان (١ / ٦٦٥)

٢ - سورة البقرة: الآية / ٨٨

٣ - معاني القرآن للأحفش (١ / ١٤٢)

٤ - تفسير الجلالين (ص: ١٨)

قال الطبري: (وقالوا: إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء، إذ كانت ما كلمة تجمع كل الأشياء ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها. وهذا القول عندنا أولى بالصواب؛ لأن زيادة ما لا تفيد من الكلام معنى في الكلام غير جائز إضافة إلى الله جل ثناؤه. ولعل قائلًا أن يقول: هل كان للذين أخبر الله عنهم أنهم قليلًا ما يؤمنون من الإيمان قليل أو كثير فيقال فيهم قليلًا ما يؤمنون؟ قيل: إن معنى الإيمان هو التصديق، وقد كانت اليهود التي أخبر الله عنها هذا الخبر نصدق بوحدانية الله وبالبعث والثواب والعقاب، وتكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وتبوتيه، وكل ذلك كان فرضًا عليهم الإيمان به لأنه في كتبهم، ومما جاءهم به موسى؛ فصَدَّقُوا بِبَعْضِ هُوَ ذَلِكَ الْقَلِيلُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَكَذَّبُوا بِبَعْضِ فَذَلِكَ هُوَ الْكَثِيرُ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ.

وقد قال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قيل: {فقليلًا ما يؤمنون} وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، وقد روي عنها سماعًا منها: مررت ببلاد قلما تثبت إلا الكرات والبصل، يعني: ما تثبت غير الكرات والبصل، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يُنطق به بوصف الشيء بالقلّة، والمعنى فيه نفى جميعه

وقال صاحب المنار: (ومن مباحث اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ وَمَا هِيَ بِزَائِدَةٍ وَفَاقًا لِابْنِ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ، وَجَلَّ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ كَلِمٌ زَائِدٌ، وَإِنَّمَا تَأْتِي (مَا) هَذِهِ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ تَارَةً وَلِتَفْخِيمِ الشَّيْءِ تَارَةً، وَيَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا يُؤْتَى بِهَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ كَمُبْتَدَأِ كَلَامٍ جَدِيدٍ يُفِيدُ الْعُمُومَ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَاِيْمَانًا قَلِيلًا ذَلِكَ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ.^١

وَأَمَّا الَّتِي لِتَفْخِيمِ الشَّيْءِ فَكَفَوْلِهِ تَعَالَى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ}.^٢

١ - تفسير الطبري (٢/ ٢٣٤)

٢ - سورة ال عمران: الآية/ ١٥٩

أَيُّ فِسْبَبٍ رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ الشَّانِ خَصَّكَ اللهُ بِهَا لَئِنْتَ لَهُمْ عَلَى مَا لَقِيتَ مِنْهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى هَذِهِ الرَّحْمَةَ بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ} ١. وَقَوْلِهِ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} ٢.

الآيَةُ الثَّلَاثَةُ:

ومن تلك الآيات التي قال عنها بعضهم أن فيها لفظًا زائدًا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} ٣.

قال السمعاني في قَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} . ("لَا" زَائِدَةٌ، وَالْمَرَادُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ؟) ٤.

والصحيح أن الفعل: "مَنَعَ" من قَوْلِهِ تَعَالَى: {مَنَعَكَ} تَضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلِ آخَرَ تَقْدِيرُهُ: مَا أَحْوَجَكَ وَالزَّمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله.

قال ابن جرير مَعْنَاهُ: (مَا مَنَعَكَ مِنَ السُّجُودِ فَأَحْوَجَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ؟ فَتَرَكَ ذِكْرَ أَحْوَجَكَ اسْتِعْنَاءً بِمَعْرِفَةِ السَّامِعِينَ) ٥.

قال ابن كثير: (وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ) ٦.

١ - سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ١٢٨

٢ - سورة الأنبياء: الآية/ ١٠٧، تفسير المنار (١/ ٣١٤)

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ١٢

٤ - تفسير السمعاني (٢/ ١٦٨)

٥ - تفسير الطبري (١٠/ ٨٤)

٦ - تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٢)

الآية الرابعة:

ومن تلك الآيات التي قال عنها بعضهم أن فيها لفظاً زائداً قولُ الله تعالى: {فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ} ١.

زَعَمَ بَعْضُ نَحْوِيِّ الْبَصْرَةِ أَنَّ لَفْظَةَ: {فَوْقَ}، زَائِدَةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ)، وَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ بِدَلِيلِ ضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي لَفْظِ: {كُنَّ}، وَضَمِيرِ الْجَمْعِ بَعْدَهَا فِي لَفْظِ: {فَلَهُنَّ}.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: (قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: قَوْلُهُ: {فَوْقَ} زَائِدَةٌ وَتَقْدِيرُهُ: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} ٢.

وَهَذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ لَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ، ثُمَّ قَوْلُهُ: {فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ} لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ: (فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ). وَإِنَّمَا اسْتُفِيدَ كَوْنُ الثُّلُثَيْنِ لِلْبِتْنَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأُخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلأُخْتَيْنِ بِالثُّلُثَيْنِ. وَإِذَا وَرِثَ الْأُخْتَانِ الثُّلُثَيْنِ فَلَأَنَّ يَرِثَ الْبِتْنَانِ الثُّلُثَيْنِ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَكَمَ لِابْنَتَيْ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثُّلُثَيْنِ، فَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: {وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}، فَلَوْ كَانَ لِلْبِتْنَيْنِ النِّصْفُ أَيْضًا لَنَصَّ عَلَيْهِ، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبِتْنَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ) ٣.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: (وَرَدَّ هَذَا الْقَوْلَ النَّحَّاسُ وَابْنُ عَطِيَّةَ وَقَالَا: هُوَ خَطَأٌ، لِأَنَّ الظُّرُوفَ وَجَمِيعَ الْأَسْمَاءِ لَا يَجُوزُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْ تُزَادَ لِعَيْبٍ مَعْنَى.

١ - سورة النساء: الآية/ ١١

٢ - سورة الأنفال: الآية/ ١٢

٣ - تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٦)

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَلِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} هُوَ الْفَصِيحُ، وَلَيْسَتْ فَوْقَ زَائِدَةً بَلْ هِيَ مُحْكَمَةٌ لِلْمَعْنَى، لِأَنَّ ضَرْبَةَ الْعُنُقِ إِذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فَوْقَ الْعِظَامِ فِي الْمَفْصِلِ دُونَ الدِّمَاغِ. كَمَا قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ: اخْفِضْ عَنِ الدِّمَاغِ وَارْفَعْ عَنِ الْعِظَمِ، فَهَكَذَا كُنْتَ أَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْأَبْطَالِ.^١

وقال أبو حيان: {وَمَنْ زَعَمَ أَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: {نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ}، اثْنَتَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا، وَأَنَّ قُوَّةَ الْكَلَامِ تَمْتَضِي ذَلِكَ كَابْنِ عَطِيَّةَ، أَوْ أَنَّ فَوْقَ زَائِدَةٌ مُسْتَدَلًّا بِأَنَّ فَوْقَ قَدْ زِيدَتْ فِي قَوْلِهِ: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} فَلَا يُحْتَاجُ فِي رَدِّ مَا زَعَمَ إِلَى حُجَّةٍ لِوُضُوحِ فَسَادِهِ.^٢

١ - تفسير القرطبي (٥/٦٣)

٢ - البحر المحيط في التفسير (٣/٥٣٧)

الآية الخامسة:

ومن تلك الآيات التي قال عنها بعضهم أن فيها لفظًا زائدًا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ١.

قَالَ جَلَّالُ الدِّينِ المَحَلِّي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الكافُ زَائِدَةٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا مِثْلَ لَهُ ٢.

قال الفخر الرازي: (مَعْنَاهُ لَيْسَ مِثْلُ مِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَا شَيْءٌ أَنْ عَيْنَ الشَّيْءِ مِثْلُ لِمِثْلٍ نَفْسِهِ. فَلَمَّا ثَبَّتَ بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ مِثْلُ مِثْلٍ نَفْسِهِ، وَدَلَّ الدَّلِيلُ الْقُرْآنِيُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ مِثْلِ اللَّهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ، كَانَ هَذَا تَصْرِيحًا بِأَنَّهُ تَعَالَى غَيْرُ مُسَمَّى بِاسْمِ الشَّيْءِ، وَلَيْسَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ «الكاف» في قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ حَرْفٌ زَائِدٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، لِأَنَّ حَمَلَ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى اللَّغْوِ وَالْعَبَثِ وَعَدَمِ الْفَائِدَةِ بعيد) ٣.

وَقَالَ الوَاسِطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَيْسَ كَذَاتِهِ ذَاتٌ، وَلَا كَاسْمِهِ اسْمٌ، وَلَا كَفِعْلِهِ فِعْلٌ، وَلَا كَصِفَتِهِ صِفَةٌ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مُوَافَقَةِ اللَّفْظِ ٤.

١ - سورة الشورى: الآية / ١١

٢ - تفسير الجلالين (ص: ٦٣٩)

٣ - تفسير الرازي (١٥ / ٤١٤)

٤ - تفسير القرطبي (١٦ / ٩)

الآيَةُ السَّادِسَةُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }^١.

قال الشوكاني: (وَمِنْ فِي قَوْلِهِ: مِنْ بَشِيرٍ زَائِدَةٌ لِلْمُبَالَغَةِ فِي نَفْيِ الْمَجِيءِ)^٢.

وكذا قال الخطيب الشربيني، قال: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ}، أي: بَشِيرٌ فمن زائدة لتأكيد النفي)^٣. والصواب كما قلنا أن القرآن ليس فيه شيءٌ زائدٌ، إنما وضعت كل لفظةٍ في موضعها بدقةٍ متناهيةٍ، ولم لا؟ وهو كلام الحكيم الخبير سبحانه وتعالى.

والفارق بين التعبير القرآني، وقولهم: (مَا جَاءَنَا بَشِيرٌ وَلَا نَذِيرٌ)، أن النفي في التعبير القرآني يدخل فيه كلٌ مبشِّرٍ ومنذِرٍ ولو لم يكن نبياً، أو رسولاً، فقد بالغوا جداً في النفي، حتى أنكروا أن يكون قد جاءهم أي داعٍ يدعوهم إلى الله.

والقول بأن {مِنْ}، زائدة يجعل النفي قاصراً على الأنبياء والرسل فقط، ويحتمل أن يكون قد جاءهم من يبشرهم وينذرهم من غير الرسل، وهم إنما نفوا كلَّ مَنْ يُطَلَّقُ عليه لفظُ بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ. ومثال ذلك قول القائل: (ما عندي مال) فهذا نفى أن يكون عنده مالٌ، وقد يكون عنده قدرٌ يسيراً من المالٍ لكنه يرى أنه لا يستحق أن يُسَمَّى مَالاً.

فإذا قال: (ما عندي من مال) فمعنى كلامه أنه لا يملك شيئاً من المال على الإطلاق لا قليلاً ولا كثيراً.

فانظر إلى التعبيرين، وإلى ما بينهما من التفاوت الكبير، والبون الشاسع.

١ - سورة المائدة: الآية / ١٩

٢ - فتح القدير للشوكاني (٢ / ٣٠)

٣ - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١ / ٣٦٥)

القاعدة العاشرة

(القرآن نزل بلسان عربي مبين)

نزل القرآن بلسان عربي مبين، على أساليب العرب التي بها يتحدثون، وطرائق كلامهم التي بها يتخاطبون، والذي لا يعرف أساليب الكلام عند العرب لا يفهم كلام الله تعالى، وإذا كان لا يفهم القرآن فكيف يتدبر معانيه، وكيف يستخلص دُرره، ويدرك مراميهِ؟

قال الله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} ١.

ومن أساليب القرآن البلاغية الكناية، والتضمين، والتلغيف، والإلتفات، واللف والنشر، والإحتراس، والإعتراض، والتعليل، والترقي، والطباق، والمدرج، وضرب الأمثال، والإطناب، والتقسيم، والتأكيد، والإيجاز، والاستعارة، وخروج اللفظ مخرج الغالب، وغيرها من أساليب القرآن البلاغية، وقد توسعت في الحديث عنها في كتابي: (من أساليب القرآن البلاغية)، وأشارت هنا إلى بعضها لبيان منهج القرآن الكريم في تعبيراته، وأنه نزل بلسان عربي مبين، وعلى أساليب العربية المعهودة عن الناس.

أساليب القرآن البلاغية

﴿الكناية﴾

وَمِنْ أَسَالِبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ الْكِنَايَةُ، وَالْكِنَايَةُ هِيَ: ذِكْرُ الشَّيْءِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ الْمَوْضُوعِ لَهُ.

أَسْبَابُ الْكِنَايَةِ:

لِلْكِنَايَةِ أَسْبَابٌ مِنْهَا:

١ - أَنْ يَكُونَ التَّصْرِيحُ مِمَّا يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهِ.

مثال ذلك الكناية عن الجماع بالملامسة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا}.^١

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَلَامَسَةُ: الْجَمَاعُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُكِنِّي بِمَا يَشَاءُ.

٢ - أَنْ يَكُونَ التَّصْرِيحُ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ.

ومثال ذلك الكناية عن البول ونحوه بالغائط قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ}.^٢

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مَنْ الْغَائِطِ}، كِنَايَةٌ عَنِ الْبَوْلِ، وَأَصْلُ الْغَائِطِ الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ.

ومثال ذلك الكناية عن قضاء الحاجة بأكل الطعام، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}.^٣

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}. كِنَايَةٌ عَنِ قَضَاءِ الْحَاجَةِ لِأَنَّ أَكْلَ الطَّعَامِ مِنْ لَوَازِمِهِ قَضَاءُ الْحَاجَةِ.

١ - سورة المائدة: الآية / ٦

٢ - سورة المائدة: الآية / ٦

٣ - سورة المائدة: الآية / ٧٥

ومثال ذلك أيضاً الكِنَايَةُ عَنِ الْأَسْتَاهِ بِالْأَدْبَارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} ١.
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَدْبَارَهُمْ}، كِنَايَةُ عَنِ الْأَسْتَاهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي أَسْتَاهَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُكَيِّبُ.

٣- التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

مثال ذلك الكِنَايَةُ عَنِ آدَمَ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} ٢.
وَقَالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} ٣.
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، كِنَايَةُ عَنِ آدَمَ، تَنْبِيْهًُا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١ - سورة الأنفال: الآية/ ٥٠

٢ - سورة النساء: الآية/ ١

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ١٨٩

﴿التَّضْمِينُ﴾

وَمِنْ أَسَالِيْبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ التَّضْمِينُ وَهُوَ: إِشْرَابُ الْكَلِمَةِ مَعْنَى كَلِمَةٍ أُخْرَى لِتَفِيدَ الْمَعْنَيْنِ.^١
 وَمِنَ الْخَطَأِ مَا يَقُولُهُ نَحَاةُ الْكُوفَةِ أَنَّ حُرُوفَ الْجَرِّ تَتَنَابَوْنَ، وَأَنَّ الْحَرْفَ يَقُومُ مَقَامَ غَيْرِهِ، فَإِنَّ كَلَامَ
 اللَّهِ تَعَالَى لَا يَشْبِهُهُ كَلَامٌ غَيْرُهُ، فَلَا يُغْنِي حَرْفٌ عَنْ حَرْفٍ مِنْهُ، وَلَا تَسُدُّ كَلِمَةٌ مَسَدَّ كَلِمَةٍ أُخْرَى.
 وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَى الْفِعْلِ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَّتَهُ وَمِنْ هُنَا غَلَطَ
 مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ
 إِلَى نِعَاجِهِ}، أَيْ: مَعَ نِعَاجِهِ، وَ {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} أَيْ مَعَ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَالتَّحْقِيقُ مَا
 قَالَهُ نَحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنَ التَّضْمِينِ، فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَى نِعَاجِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:
 {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}، ضَمَّنَ مَعْنَى يُزَيْعُونَكَ وَيَصُدُّونَكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:
 {وَنَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، ضَمَّنَ مَعْنَى بَجَّيْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يَشْرَبُ
 بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}، ضَمَّنَ يُرْوَى بِهَا وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.^٢

ومنه قول الله تعالى: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}.^٣

ضَمَّنَ الْفِعْلُ: {خَلَوْا} مَعْنَى: انصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا؛ لِتَعْدِيهِ بِإِلَى، لِيَدُلَّ عَلَى الْفِعْلِ الْمُضْمَرِ
 وَالْفِعْلِ الْمَلْفُوظِ بِهِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى إِذَا انصَرَفُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
 مُسْتَهْزِئُونَ.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ}.^١

١ - حاشية الخضري على ابن عقيل (٢٣ / ١)

٢ - مجموع الفتاوى (٣٤٢ / ١٣)

٣ - سورة البقرة: الآية / ١٤

الأصل أن الفعل يسارع يتعدي بإلى كما في قوله تعالى: {وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ} ٢.
 وإنما عدي الفعل {يُسَارِعُونَ} بـ {فِيهِمْ} لتضمنه معنى المسارعة والدخول، فيكون معنى الكلام
 فَتَرَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِي الدُّخُولِ فِي أَحْزَابِ الْمُشْرِكِينَ، مناصرين لهم
 وموالين لهم، ومنتعزين بهم خوفاً من أن تدور الدائرة عليهم.
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}.
 ضَمَّنَ الْفِعْلُ: {يَشْرَبُ} مَعْنَى يَرْوِي، وَيَتَلَذَّذُ؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ لَا يَتَعَدَّى بِالْبَاءِ، فَلِذَلِكَ دَخَلَتْ
 الْبَاءُ، وَإِلَّا فَـ {يَشْرَبُ} يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، فَأُرِيدَ بِاللَّفْظِ الشُّرْبِ، وَالرَّيُّ مَعَ التَّلَذُّذِ.

١ - سورة المائدة: الآية/ ٥٢

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١٣٣

﴿التلّيف﴾

وَمِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ التَّلْفِيفُ، وهو: عبارةٌ عن إخراج الكلام مخرج التعليم بحكم أو أدب لم يُرد المتكلم ذكره، وإنما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي خرج بتعليمه.

وَمِثَالُ التَّلْفِيفِ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} ١.

ومعنى الآية أن الصحابة رضي الله عنهم لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحوال القمر وتآقت نفوسهم إلى تعلم هيئته وقالوا له: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا بَالُ الْهَلَالِ يَبْدُو دَقِيقًا ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَكْبُرُ حَتَّى يَسْتَدِيرَ بَدْرًا؟ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِالْجَوَابِ بِمَا فِيهِ فَائِدَةٌ لِلْبَشَرِ، وَتَرَكَ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَمَرَ قَدَّرَ مَنَازِلَ فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو يَكُونُ هَلَالًا صَغِيرًا، ثُمَّ يَتَزَايِدُ نُورُهُ وَحِزْمُهُ، حَتَّى يَسْتَوَسِقَ وَيَكْمُلَ إِبْدَارُهُ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ فِي تَمَامِ شَهْرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ٢.

وتفسير هذه الظاهرة لا تفيدها الناس شيئاً في دينهم ولا في دنياهم، فأرشدهم الله تعالى إلى ما فيه نفعهم، وهو أنه سبحانه جعل منازل القمر هذه ليَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} ٣.

فالله تبارك وتعالى أمرنا بترك ما لا فائدة فيه من البحث في الظواهر الكونية، وكيفية حدوثها لأنها لا يترتب على معرفتها كبير فائدة، وأرشدنا إلى ما فيه النفع والفائدة لنا.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٨٩

٢ - سورة يس: الآية/ ٣٩، ٤٠

٣ - سورة يونس: الآية/ ٥

﴿الِئْتِفَاتُ﴾

وَمِنْ أَسَالِيْبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ الْإِئْتِفَاتُ وَهُوَ: نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى آخَرَ، مِنْ الْعَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، وَمِنْ الْخِطَابِ إِلَى الْعَيْبَةِ وَمِنْ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ، وَمِنْ الْخِطَابِ إِلَى التَّكْلُمِ، وَمِنْ التَّكْلُمِ إِلَى الْخِطَابِ.

وَفَائِدَتُهُ: صِيَانَةُ السَّمْعِ عَنِ الضَّحْرِ وَالْمَلِّ فَإِنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ عَلَيَّ حُبَّ التَّنَقُّلِ، وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ مِنَ الْخِطَابِ يُوْدِي إِلَى السَّامَةِ.

وَفَائِدَتُهُ أَيْضًا: إِظْهَارُ الْمَلَكَةِ فِي الْكَلَامِ، وَالِاقْتِدَارِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهِ.

مِثَالُ الْإِئْتِفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْعَيْبَةِ:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِمْ }^١.

فِي الْكَلَامِ الْئْتِفَاتٌ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْعَيْبَةِ، وَلَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِكُمْ).

مِثَالُ الْإِئْتِفَاتِ مِنَ الْعَيْبَةِ إِلَى التَّكْلُمِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }^٢.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْئْتِفَاتٌ مِنَ الْعَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: { الَّذِي أَسْرَى }، إِلَى التَّكْلُمِ فِي قَوْلِهِ: { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا }.

وَفِيهَا الْئْتِفَاتٌ آخَرٌ مِنَ التَّكْلُمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا }، إِلَى الْعَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }.

١ - سورة يونس: الآية/ ٢٢

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ١

وَمِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} ١.

في هذه الآية التيفات من الواحد في قوله: {مَا حَوْلَهُ} إِلَى الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: {بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ}، وَلَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ وَتَرَكَهُ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ).

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِلْتِفَاتِ أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ، وَأَوْقَعُ فِي النُّفُوسِ، وَأَبْلَغُ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ.

﴿الْفُ وَالنَّشْرُ﴾

وَمِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ الْفُ وَالنَّشْرُ: وَهُوَ أَنْ يُذَكَرَ شَيْئَانِ أَوْ أَشْيَاءَ، إِمَّا تَفْصِيلاً بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَوْ إِجْمَالاً بِأَنْ يُؤْتَى بِلَفْظٍ يَشْتَمِلُ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ثُمَّ يُذَكَرُ أَشْيَاءٌ عَلَى عَدَدِ ذَلِكَ كُلِّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِ وَيُفَوِّضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدَّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيْقُ بِهِ.

أَقْسَامُ الْفُ وَالنَّشْرِ:

الْفُ وَالنَّشْرُ يَنْقَسَمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الأول: الْفُ وَالنَّشْرُ الْمُرْتَّبُ.

الثاني: الْفُ وَالنَّشْرُ غَيْرُ الْمُرْتَّبِ.

أولاً: الْفُ وَالنَّشْرُ الْمُرْتَّبُ:

مِثَالُهُ:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١.

فقوله تَعَالَى: {لِتَسْكُنُوا فِيهِ}، راجعٌ إلى اللَّيْلِ، أي: لِتَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ، وقوله: {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} راجعٌ إلى وَالنَّهَارِ، أي: وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ فِي النَّهَارِ، ففي الآية لَفٌّ وَنَشْرٌ مُرْتَّبٌ.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَقَوْمًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ

١ - سُورَةُ الْقَصَصِ: الْآيَةُ/ ٧٣

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ١.

فَالَّذِينَ أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَاصِبٌ هُمْ: عَادٌ، وَالَّذِينَ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ هُمْ: ثَمُودٌ، وَالَّذِي خَسَفَ بِهِ الْأَرْضَ: قَارُونُ، وَالَّذِينَ أَغْرَفَهُمُ اللَّهُ: فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا. فَفِي الْآيَاتِ لَفٌّ وَنَشْرٌ مُرْتَبٌّ كَمَا ذَكَرْنَا.

ثَانِيًا: اللَّفُّ وَالنَّشْرُ غَيْرُ الْمُرْتَبِّ:

مِثَالُهُ:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَادْكُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ٢.

فِي الْآيَتَيْنِ لَفٌّ وَنَشْرٌ غَيْرُ مُرْتَبِّ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي اللَّفِّ الْإِبْيَاضَ قَبْلَ الْإِسْوَادِ، وَذَكَرَ فِي النَّشْرِ حُكْمَ مَنْ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ قَبْلَ حُكْمِ مَنْ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} ٣.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَفٌّ وَنَشْرٌ غَيْرُ مُرْتَبِّ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي اللَّفِّ اللَّيْلَ قَبْلَ النَّهَارِ، فَقَالَ: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، وَذَكَرَ فِي النَّشْرِ {لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} يُرِيدُ التَّصَرُّفَ فِي الْمَعَاشِ فِي النَّهَارِ، ثُمَّ قَالَ: {وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}، وَالْمَرَادُ الْحِسَابُ الْمَتَعَلِّقُ بِمَا فِي ضَمَنِ السِّنِينَ مِنَ الْأَشْهُرِ وَاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، يَعْنِي مَنَازِلَ الْقَمَرِ.

١ - سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الْآيَةُ/ ٣٦ : ٤٠

٢ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ/ ١٠٦ ، ١٠٧

٣ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ/ ١٢

﴿الإختِراسُ﴾

وَمِنْ أَسَالِيْبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ الْإِخْتِراسُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُحْتَمِلًا لِشَيْءٍ بَعِيدٍ فَيُؤْتَى بِمَا يَدْفَعُ ذَلِكَ الْإِحْتِمَالَ.

وَمِثَالُ الْإِخْتِراسِ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {اسْأَلْكَ يَدَاكَ فِي جَنِيكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} ١.

اِحْتِراسَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} عَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَرَصٍ أَوْ مَرَضٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} ٢.

اِحْتِراسَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} عَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودِهِ عَنْ قَصْدٍ

مِنْهُمْ بَلْ مِنْ عَدْلِ سُلَيْمَانَ وَفَضْلِهِ وَفَضْلِ جُنُودِهِ لَا يَحْطِمُونَ نَمْلَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا بِاللَّيْلِ يَشْعُرُونَ.

فَإِنْ تَبَسَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ سُرُورًا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَلَيْسَ غَضَبًا مِنْهَا، وَأَكَّدَ التَّبَسُّمَ بِالضَّحِكِ لِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ تَبَسُّمَهُ تَبَسُّمُ سُرُورٍ لَا تَبَسُّمَ الْعُضْبَانَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} ٣.

اِحْتِراسَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: {أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} عَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِضَعْفِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَى

وَصْفِهِمْ بِالذَّلَّةِ لَتُوَهَّمَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَبَبُهُ الضَّعْفُ، فَلَمَّا ذَكَرَ عِزَّتَهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ عَلِمَ أَنَّهَا مِنْهُمْ تَوَاضَعٌ وَعَطْفٌ، وَلَيْسَ ضَعْفًا.

١ - سُورَةُ النَّملِ: الْآيَةُ / ١٢

٢ - سُورَةُ النَّملِ: الْآيَةُ / ١٨

٣ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةُ / ٥٤

﴿الاعتراض﴾

وَمِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ الْإِعْتِرَاضُ، وَالْإِعْتِرَاضُ أَنْ يُؤْتَى فِي أَتْنَاءِ الْجُمْلَةِ بِكَلَامٍ فَاصِلٍ، يَتِمُّ الْغَرَضُ الْأَصْلِيُّ بِدُونِهِ وَلَا يَفُوتُ بِغَوَاتِهِ لِنُكْتَةٍ. وَهُوَ مَا يَسْمِيهِ النُّحَاهُ بِالْجُمْلَةِ الْمُعْتَرِضَةِ.

أَسْبَابُ الْإِعْتِرَاضِ:

لِلْإِعْتِرَاضِ أَسْبَابٌ مِنْهَا:

١- التَّقْرِيرُ:

وَمِثَالُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ} ١. فَجُمْلَةٌ: {لَقَدْ عَلِمْتُمْ}، اعْتِرَاضٌ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالُوا تَاللَّهِ} وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ}، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْإِعْتِرَاضِ تَقْرِيرُ إِثْبَاتِ الْبَرَاءَةِ مِنْ تَهْمَةِ السَّرِقَةِ. وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} (٣٤) وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} ٢. فَجُمْلَةٌ: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، اعْتِرَاضٌ بَيْنَ قَوْلِهَا: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}، وَقَوْلِهَا: {وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}.

وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْإِعْتِرَاضِ: تَقْرِيرُ إِثْبَاتِ أَنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً مِنَ الْقُرَى خَرَّبُوا مَبَانِيهَا، وَغَيَّرُوا مَغَانِيهَا، وَأَتْلَفُوا أَمْوَالَهَا، وَفَرَّقُوا شَمْلَ أَهْلِهَا وَأَهَانُوا أَشْرَافَهَا، وَحَطُّوا مَرَاتِبَهُمْ، فَصَارُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَذِلَّةً، وَإِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ يَتِمَّ لَهُمُ الْمُلْكُ، وَتُسْتَحْكَمَ لَهُمُ الْوِطَاءُ، وَتَتَقَرَّرَ لَهُمْ فِي قُلُوبِ النَّاسِ الْمَهَابَةُ.

١ - سورة يونس: الآية / ٧٣

٢ - سورة النمل: الآية / ٣٤، ٣٥

٢- التَّنْزِيهِ:

وَمِثَالُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} ١.
فَجُمْلَةٌ: {سُبْحَانَهُ}، اعْتِرَاضٌ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ}، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَهُمْ مَا
يَشْتَهُونَ}، وَالْعَرَضُ مِنْهُ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَفِيهِ الشَّنَاعَةُ عَلَى مَنْ جَعَلَ الْبَنَاتِ لِلَّهِ.

٣- التَّبَرُّكُ:

وَمِثَالُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ} ٢.
فَجُمْلَةٌ: {إِنْ شَاءَ اللَّهُ}، اعْتِرَاضٌ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، وَقَوْلِهِ تَعَالَى:
{آمَنِينَ}.

وفائدة الاعتراض هنا التَّبَرُّكُ.

١ - سورة النَّحْلِ: الآية/ ٥٧

٢ - سورة الْفَتْحِ: الآية/ ٢٧

القاعدة الحادية عشرة

(القرآن في أعلى درجات الفصاحة)

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، وهو أحسن الحديث، وهو في أعلى درجة من الفصاحة، وأرفع رتبة في البلاغة، وفصاحة القرآن وجه من وجوه إعجازه، ولفصاحته العالية، وبلاغته الرفيعة، قال الوليد بن المغيرة لما سمعه من النبي لي الله عليه وسلم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم! إن قومك يرون أن يجتمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال ليغطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لِمَا قَبْلَهُ، قال: قد علمت فريش أبي من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكز له أو أنك كاره له قال: وماذا أقول فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، وو الله إن لِقَوْلِهِ الَّذِي يَثُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَا، وَإِنَّهُ لَيَخْطِمُ مَا تَحْتَهُ»^١

قبل أن نتكلم عن فصاحة القرآن وبلاغته، وعن إعجازه الذي بهر العقول، وأدهش الألباب، وسلم له أساطين البلاغة، وسجد له الفصحاء اللسن، نذكر حد الفصاحة والبلاغة، ليتبين المراد، ويعلم القصد والسداد، وتميز الذرى من الوهاد.

حد البلاغة:

البلاغة لغة: مصدر (بَلَّغَ الرَّجُلُ) الضَّم: إِذَا صَارَ بَلِيغًا.^٢

وَرَجُلٌ بَلِيغٌ حَسَنُ الْكَلَامِ فَصِيحُهُ يُبَلِّغُ بِعِبَارَةٍ لِسَانِهِ كُنْهَ مَا فِي قَلْبِهِ.^٣

١ - رواه البيهقي في دلائل النبوة

٢ - الكليات (ص: ٢٣٦)

٣ - انظر لسان العرب (٨ / ٤٢٠)

قال أبو هلال العسكري: (وهي إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة).^١

وقال الرومي: (البلاغة هي الأقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة).

وقال الفارسي: (البلاغة معرفة الفصل من الوصل).^٢

وقيل البلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته).^٣

واصطلاحًا: البلاغة هي التّعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد ولا انتقاص عنه في البيان، فعلى هذا فكلما ازداد الكلام في المطابقة للمعنى وشرف الألفاظ ورونق المعاني والتجنب عن الركيك المستغث كان بلاغته أزيد.^٤

وقال السكاكي: (بلاغة المتكلم بلوغه في تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه، والمجاز، والكناية على وجهها).^٥

وقيل: (بلوغه في كلامه لعبارة كنه مراده مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة بلا إملال، وقيل: ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ).^٦

حد الفصاحة:

الفصاحة لغة: الخلو، ومنه: فصح وأفصح فهو مفصح وفصيح، أي: خلص من الرغوة. ومنه قولهم: وتحت الرغوة اللبن الفصيح.

ومنه: فصح الرجل إذا جادت لفته، وأفصح: تكلم بالعربية.

١ - معجم الفروق اللغوية (ص: ٣٠)

٢ - البصائر والذخائر (٢/ ٦٥)

٣ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)

٤ - الكليات (ص: ٢٣٦)

٥ - مفتاح العلوم (ص: ٤١٥)

٦ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)

وأما في اصطلاح أهل البيان، فهي: صوغ الكَلَام على وجه له تَوْفِيَةٌ بِتَمَامِ الإِفْهَام لمعناه بتبيين المراد، وتزيين الألفاظ بما يقرب فهمه، ويعزب نظمه، ويعذب استماعه، ويعجب ابتداعه، ويدل مطالعه على مقاطعه، وينم مبادئه على تواليه لا بِاسْتِعْمَالِ الشُّوَارِدِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ، والأوَابِدِ الَّتِي لَا تَعْلَمُ.

وقيل الفصاحة هي: خُلُوصُ الكَلِمَةِ من تنافر الحروف، كقوله: تَرَعَى المُهْنَعَجُ. ومن الغرابة، كقوله: وَمَرْسِنًا مُسَرَّجًا.

ومن مخالفة القياس اللغوي كقوله: العَلِيُّ الأَجَلِلِ.

وخلوص الكلام من ضعف التأليف كقوله:

جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بَنِ حَاتِمِ.

ومن تنافر الكلمات كقوله:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ **** وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

ومن التعقيد، وهو إما إخلال نظم الكلام فلا يُدْرَى كيف يتوصل إلى معناه، كقوله:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكَ **** أَبُو أُمَّهِ حَيُّ أَبُوهُ يُقَارِيهِ

وإما عدم انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهر كقوله:

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُؤُوا **** وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

فانظر هل ترى في القرآن شيئاً مما ذُكِرَ مما يقدح في فصاحة الكلام، أو يوسم بأنه ركيك من الألفاظ، أو هل ترى فيه تنافراً بين حروفه، أو لفظاً غريباً يصعب في النطق، أو ينبو عنه السمع؟

{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} ١.

فانظر إلى قوله تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} ٢.

وفيها تكرر حرف الميم ست عشرة مرة، ومع ذلك لا يشعر القارئ بشيء من العسر عند النطق بها، ولا بشيء من الثقل عند سماعها.

ثم انظر إلى قوله تعالى: {وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَنْ يُتَّقِبْ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَأُقْتَلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} ٣.

وفيها تكرر حرف القاف عشر مرات، ولا يكاد القارئ يشعر بتوالي هذا الحرف مع شدته وقلقلته، وجهره، واستعلائه، ومع ذلك لا يشعر القارئ إلا بسهولة النطق، وسلاسة الألفاظ.

وصدق الله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} ٤.

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: «جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبُغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. قَالَ: أَعِدْ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثَمِّرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُعْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ» ٥.

١ - سورة الملوك: الآية/ ٣، ٤

٢ - سورة هود: الآية/ ٤٨

٣ - سورة المائدة: الآية/ ٢٧

٤ - سورة القمر: الآية/ ١٧

٥ - رواه البيهقي في دلائل النبوة- باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبهه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأزباب اللسان (١٩٩/٢)

وذكر أبو عبيدة: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} فسجد وقال: «سجدت لفصاحته».

وسمع آخر يقرأ: {فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا بِحَيِّ} ١.

فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مَخْلُوقًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ.

وَحُكِي: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَوْمًا نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ بِقَائِمٍ عَلَى رَأْسِهِ يَتَشَهَّدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، فَاسْتَحْبَرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ ذَلِكَ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ مِنْ بَطَارِقَةِ الرُّومِ مِمَّنْ يُحْسِنُ كَلَامَ الْعَرَبِ وَغَيْرَهَا وَأَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِكُمْ فَتَأَمَّلْتُهَا فَإِذَا قَدْ جُمِعَ فِيهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَهِيَ قَوْلُهُ: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي وَبِتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} ٢.

وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ: أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ جَارِيَةٍ، فَقَالَ لَهَا: «فَاتْلِكِ اللَّهَ مَا أَفْصَحَكَ!»

فَقَالَتْ: أَوْ يَعِدْ هَذَا فَصَاحَةً بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ} ٣.

فَجَمَعَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، وَنَهْيَيْنِ، وَخَبْرَيْنِ، وَبِشَارَتَيْنِ) ٤.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأَثُونِي مُسْلِمِينَ} ٥.

جمع في ثلاث كلمات بين: العنوان، والكتاب، والحاجة.

١ - سُورَةُ يُوسُفَ: الْآيَةُ / ٨٠

٢ - سُورَةُ النُّورِ: الْآيَةُ / ٥٢

٣ - سُورَةُ الْقَصَصِ: الْآيَةُ / ٧

٤ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وحاشية الشمي (١/ ٢٦٢، ٢٦٣)

٥ - سُورَةُ النَّملِ: الْآيَةُ / ٣٠، ٣١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} ١.

قال بعض العلماء هذه الآية {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ}. {من عجائب القرآن لأنها بلفظة {يا} نادت، و: {أَيُّهَا} تَبَّهت، و: {النَّمْلُ} عَيَّت، و: {ادْخُلُوا} أمرت، و: {مَسَاكِنَكُمْ} نَصَّت، و: {لَا يَحْطِمَنَّكُمْ} حَذَّرت، و: {سُلَيْمَانُ} خصت، و: {وَجُنُودُهُ} عَمَّت، و: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} اعتذرت.

فجمع في هذه الآية على لسان النملة بين النداء، والتنبيه، والأمر، والنهي، والتحذير، والتخصيص، والعموم، والإشارة، والإعذار.

قال ابن كثير رحمه الله: (وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَحَمِيحُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نَهَايَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ تَفْصِيلاً وَإِجْمَالاً يَمُنُّ فِيهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَنَصَارِيْفَ التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيْزَةً، وَسَوَاءٌ تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ حَلَا وَعَلَا لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ جَاءَ مِنْهُ مَا تَفْشَعُرُ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ، وَإِنْ وَعَدَ أَتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَ، وَيُشَوِّقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَجُحَاوَرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ فِي التَّرْغِيْبِ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ٢.

وَقَالَ: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ٣.

وَقَالَ فِي التَّرْهِيْبِ: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ} ٤.

١ - سُورَةُ النَّمْلِ: الْآيَةُ / ١٨

٢ - سُورَةُ السَّجْدَةِ: الْآيَةُ / ١٧

٣ - سُورَةُ الرُّحْرِفِ: الْآيَةُ / ٧١

٤ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ / ٦٨

{أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} ١.

وَقَالَ فِي الرَّجْرِ: {فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} ٢.

وَقَالَ فِي الْوَعْظِ: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ} ٣.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَإِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ حَسَنٍ نَافِعٍ طَيِّبٍ مَحْبُوبٍ، وَالنَّهْيِ عَنِ كُلِّ فَيِّحٍ رَذِيلٍ دَنِيءٍ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَعَظِيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فَأَوْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَا يُأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يُنْهَىٰ عَنْهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}. الْآيَةُ ٤.

وَإِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي وَصْفِ الْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَفِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِمَا لِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ وَالْمَلَادِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، بَشَّرَتْ بِهِ وَحَدَّرَتْ وَأَنْذَرَتْ؛ وَدَعَتْ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ، وَزَهَّدَتْ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَتْ فِي الْآخِرَى، وَتَبَيَّنَتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَى، وَهَدَّتْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ وَشَرَعِهِ الْقَوِيمِ، وَنَفَتْ عَنِ الْقُلُوبِ رِجْسَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ). ٥.

١ - سُورَةُ الْمُلْكِ: الْآيَةُ/ ١٦، ١٧

٢ - سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الْآيَةُ/ ٤٠

٣ - سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: الْآيَةُ/ ٢٠٥ - ٢٠٧

٤ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ/ ١٥٧

٥ - تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (١/ ٢٠٠)

وقال شهاب الدين القسطلاني: (والثاني: أن إعجازه هو الوصف الذى صار به خارجًا عن جنس كلام العرب من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، والرجز، والسجع، فلا يدخل فى شىء منها، ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة فى نظمهم ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدلت أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله فى حسن كلامهم، فلا ريب أنه فى فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمه، وفى بلاغته قد أصاب المعانى بصائب سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته اللائحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقيًا إلا تهاقت تهاقت الفراش فى الشهاب، وذلَّ ذلَّ النقد حول الليوث الغضاب.

وقد حكى عن غير واحد ممن عارضه أنه اعترته روعة وهيبة كَفَّتُهُ عن ذلك، كما حكى عن يحيى بن حكيم الغزالي - بتخفيف الزاى وقد تشدد - وكان بليغ الأندلس فى زمانه أنه قد رام شيئًا من هذا، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته خشية ورقة، حملته على التوبة والإنابة.

وحكى أيضًا أن ابن المقفع - وكان أفصح أهل وقته - أنه طلب ذلك ورامه، ونظم كلاما وجعله مفصلا، وسماه سورا، فاجتاز يوما بصبي يقرأ فى مكتب قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ}. الآية، فرجع ومضى ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يُعَارِضُ أَبَدًا، وما هو من كلام البشر).^١

وقال صاحب سبل الهدى والرشاد، فى سيرة خير العباد: (ووجه إعجازه معلوم ضرورة بجزالة لفظه، وفخامة تأليفه، وبلوغه أقصى درجات مراتب البلاغة والفصاحة وحسن التتام كلماته ونظم آياته وبراعة إيجازه وغرابة فنونه وفصاحة وجوه فواتحه وخواتمه، فلا يحتاج العلم به إلى دليل).^٢

١ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/ ٢٤٦)

٢ - سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (٩/ ٤٠٨)

وقال أبو عيسى الرماني: (فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها بقية فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلاغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيبي، ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره، ونافر متكلف.

وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم، كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصة، كما أن ذلك معجز للكافة).^١

وقال أبو بكر الجصاص: (وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْقُرْآنَ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ التَّحَدِّي لِلْعَجْمِ وَقِعًا بِأَنْ يَأْتُوا بِكَلَامٍ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ بِلُغَتِهِمُ الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا).^٢

وقال أبو بكر الباقلاني: (وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حدٍ واحدٍ، في حسنِ النظمِ، وبديعِ التأليفِ والرصفِ، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا.

وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍ واحدٍ لا يختلف.

وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتًا بينا، ويختلف اختلافًا كبيرًا.

١ - اعجاز القرآن للرماني (ص: ٧٦، ٧٥)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ود. محمد

زغلول سلام

٢ - أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٢٧١)

ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة.

فعلما بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه، واختلاف الاسباب التي يتضمن^١.

وقال الزرقاني: (أبرع الشعراء لم يكتب له التبريز والإجادة والجمع بين المعنى الناصع واللفظ الجامع إلا في أبيات معدودة، من قصائد محدودة، أما سائر شعرهم بعد فبين متوسط ورديء، وها هم أولاء يعلنون حكمهم هذا نفسه أو أقل منه على الناثرين من الخطباء والكتاب.

وإن أردت أن تلمس بيدك هذه الخاصة فافتح المصحف الشريف مرة واعمد إلى جملة من كتاب الله وأحصها عددًا، ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أي كلام آخر، وقارن بين الجملتين، ووازن بين الكلامين، وانظر أيهما أملأ بالمعاني مع القصد في الألفاظ ثم انظر أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها في ذلك الكلام الإلهي، وكم كلمة يجب أن تسقطها أو تبدلها في ذلك الكلام البشري؟

إنك إذا حاولت هذه المحاولة فستنتهي إلى هذه الحقيقة التي أعلنها ابن عطية فيما يحكي السيوطي عنه وهو يتحدث عن القرآن الكريم إذ يقول لو نزعتم منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد.

وذلك بخلاف كلام الناس مهما سما وعلا، حتى كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي أوتي جوامع الكلم، وأشرقت نفسه بنور النبوة والوحي، وصيغ على أكمل ما خلق الله، فإنه مع تحليقه في سماء البيان وسموه على كلام كل إنسان، لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن، وسبحان الله و بحمده سبحانه الله العظيم^٢.

١ - إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٨)

٢ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (٢/٣٢٥)

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: (اصطفى الله من ألفاظ اللغة العربية أفصحها وأيسرها على اللسان، وأسهلها على الأفهام، وأمتعها للآذان، وأقواها تأثيراً على القلوب، وأوفاها تأدية للمعاني، ثم ركبها تركيباً محكم البنيان، لا يدانيه في نسجه كلام البشر من قريب ولا من بعيد، وذلك لما يكمن في ألفاظه من الإيجازات التي تعبر إلى خلجات النفس، وتقتحم شغاف القلوب.

وما يكون في تركيبه من ألفة عجيبة، وانسجام وثيق بين هذه الألفاظ، مهما تقاربت مخارج حروفها أو تباعدت.

فقد جاء رصف المباني وفق رصف المعاني، فالتقى البحران على أمر قد فُدر، فاستساغته جميع القبائل على اختلاف لهجاتها قراءة وسماعاً.

واستسلمت لهذا النسق الفريد، والترتيب العجيب أساطين البلاغة في كل زمان ومكان، واستمدت منه النفوس المؤمنة روحها وريحانها، فلم يشبع من دراسته العلماء، ولم يملّ تلاوته أحد من الأتقياء).^١

وَقَالَ حَازِمٌ فِي مِنْهَاجِ الْبُلَغَاءِ: إِنَّ الْإِعْجَازَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَمَرَّتِ الْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ أُنْحَائِهَا فِي جَمِيعِهِ اسْتِمْرَارًا لَا تُوجَدُ لَهُ فِتْرَةٌ وَلَا يَفْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ وَمَنْ تَكَلَّمَ بِلُغَتِهِمْ لَا تَسْتَمِرُّ الْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ فِي جَمِيعِ أُنْحَائِهَا فِي الْعَالِي مِنْهُ إِلَّا فِي الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الْمَعْدُودِ ثُمَّ تَعْرِضُ الْفَتْرَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ فَتَقْطَعُ طَيِّبَ الْكَلَامِ وَرَوْنَقَهُ فَلَا تَسْتَمِرُّ لِذَلِكَ الْفَصَاحَةُ فِي جَمِيعِهِ بَلْ تُوجَدُ فِي تَفَارِيقٍ وَأَجْزَاءٍ مِنْهُ وَالْفَتْرَاتُ فِي الْفَصَاحَةِ تَقَعُ لِلْفَصِيحِ إِمَّا بِسَهْوٍ يَعْزِضُ لَهُ فِي الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِهِ أَوْ مِنْ جَهْلٍ بِهِ أَوْ مِنْ سَامَةِ تَعْتَرِي فِكْرَهُ أَوْ مِنْ هَوَى لِلنَّفْسِ يَغْلِبُ عَلَيْهَا فِيمَا يَحُوشُ عَلَيْهَا خَاطِرُهُ مِنْ اقْتِنَاصِ الْمَعَانِي سَمِينًا كَانَ أَوْ غَثًا فَهَذِهِ آفَاتٌ لَا يَخْلُو مِنْهَا الْإِنْسَانُ الْفَاضِلُ وَالطَّبَعُ الْكَامِلُ.^٢

١ - دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل (ص: ٣٢٨)

٢ - نقلا عن البرهان في علوم القرآن (٢ / ١٠١)

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: (ذَهَبَ الْأَكْثَرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّظَرِ إِلَى أَنْ وَجَّهَ الْإِعْجَازَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لَكِنْ صَعِبَ عَلَيْهِمْ تَفْصِيلُهَا وَصَعَوْا فِيهِ إِلَى حُكْمِ الذَّوْقِ).

قَالَ: وَالْعِلَّةُ فِيهِ أَنَّ أَجْنَاسَ الْكَلَامِ مُخْتَلِفَةٌ، وَمَرَاتِبَهَا فِي دَرَجَاتِ التَّبَيَّنِ مُتَفَاوِتَةٌ، وَدَرَجَاتُهَا فِي الْبَلَاغَةِ مُتَبَايِنَةٌ، غَيْرَ مُتَسَاوِيَةٍ، فَمِنْهَا الْبَلِيغُ الرَّصِينُ الْجَزْلُ، وَمِنْهَا الْفَصِيحُ الْقَرِيبُ السَّهْلُ، وَمِنْهَا الْجَائِزُ الطَّلُقُ الرَّسُلُ.

وَهَذِهِ أَقْسَامُ الْكَلَامِ الْفَاضِلِ الْمَحْمُودِ، دُونَ النَّوْعِ الْهَجِينِ الْمَذْمُومِ، الَّذِي لَا يُوْجَدُ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ مِنْهُ الْبَتَّةَ.

فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ: أَعْلَى طَبَقَاتِ الْكَلَامِ وَأَرْفَعُ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: أَوْسَطُهُ وَأَقْصَدُهُ.

وَالْقِسْمُ الثَّلَاثُ: أَدْنَاهُ وَأَقْرَبُهُ.

فَحَارَزَتْ بَلَاغَاتُ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ حِصَّةً، وَأَخَذَتْ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ شُعْبَةً، فَانْتَضَمَتْ لَهَا بِإِمْتِرَاجِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ نَمَطٌ مِنَ الْكَلَامِ يَجْمَعُ صِفَتِي الْفَخَامَةِ وَالْعُدُوْبِيَّةِ، وَهُمَا عَلَى الْإِنْفِرَادِ فِي نَعْوَتِهِمَا كَالْمُتَضَادِّينِ لِأَنَّ الْعُدُوْبِيَّةَ نِتَاجُ السُّهُولَةِ، وَالْجَزَالَةُ وَالْمَتَانَةُ يُعَالِجَانِ نَوْعًا مِنَ الْوَعُورَةِ فَكَانَ اجْتِمَاعُ الْأَمْرَيْنِ فِي نَظْمِهِ مَعَ تَبَوُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ فَضِيلَةً خُصَّ بِهَا الْقُرْآنُ؛ لِيَكُونَ آيَةً بَيِّنَةً لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَلَالَةً لَهُ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَا إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ.

وَأَمَّا تَعَدُّرُ عَلَى الْبَشَرِ الْإِنِّيَّانُ بِمِثْلِهِ لِأُمُورٍ مِنْهَا أَنْ عِلْمُهُمْ لَا يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَسْمَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبِالْفَاطِحَاتِ الَّتِي هِيَ ظُرُوفُ الْمَعَانِي، وَلَا تُدْرِكُ أَفْهَامُهُمْ جَمِيعَ مَعَانِي الْأَشْيَاءِ الْمَحْمُولَةِ عَلَى تِلْكَ الْأَلْفَازِ، وَلَا تَكْمُلُ مَعْرِفَتُهُمْ لِاسْتِيفَاءِ جَمِيعِ وُجُوهِ النُّظُومِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ ائْتِلَافُهَا، وَازْتِبَاطُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، فَيَتَوَصَّلُونَ بِاخْتِيَارِ الْأَفْضَلِ مِنَ الْأَحْسَنِ مِنْ وُجُوهِهَا إِلَى أَنْ يَأْتُوا بِكَلَامٍ مِثْلِهِ، وَأَمَّا يَقُومُ الْكَلَامُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ: لَفْظٌ حَاصِلٌ، وَمَعْنَى بِهِ قَائِمٌ، وَرِبَاطٌ لهُمَا نَاطِقٌ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْقُرْآنَ

وَجَدَتْ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنْهُ فِي غَايَةِ الشَّرْفِ وَالْفَضِيلَةِ حَتَّى لَا تَرَى شَيْئًا مِنَ الْأَلْفَاظِ أَفْصَحَ وَلَا أَجْزَلَ وَلَا أَعْدَبَ مِنْ أَلْفَاظِهِ، وَلَا تَرَى نَظْمًا أَحْسَنَ تَأْلِيفًا، وَأَشَدَّ تَلَاوُماً وَتَشَاكُلًا مِنْ نَظْمِهِ، وَأَمَّا الْمَعَانِي فَلَا خَفَاءَ عَلَى ذِي عَقْلِ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لَهَا الْعُقُولُ بِالتَّقَدُّمِ فِي أَبْوَابِهَا، وَالتَّرَقِّيِّ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْفَضْلِ مِنْ نَعْوَتِهَا وَصِفَاتِهَا.

وَقَدْ تُوجَدُ هَذِهِ الْفَضَائِلُ الثَّلَاثُ عَلَى التَّفَرُّقِ فِي أَنْوَاعِ الْكَلَامِ، وَأَمَّا أَنْ تُوجَدَ جَمْعُوعَةً فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهُ فَلَمْ تُوجَدِ إِلَّا فِي كَلَامِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ، الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا.

فَتَفْهَمُ الْآنَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا صَارَ مُعْجَزًا لِأَنَّهُ جَاءَ بِأَفْصَحِ الْأَلْفَاظِ فِي أَحْسَنِ نُظُومِ التَّأْلِيفِ مُضْمِنًا أَصَحَّ الْمَعَانِي.^١

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا: (وَقَدْ قُلْتُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَجْهًا ذَهَبَ عَنْهُ النَّاسُ وَهُوَ صَنِيعُهُ فِي الْقُلُوبِ وَتَأْثِيرُهُ فِي النُّفُوسِ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ كَلَامًا غَيْرَ الْقُرْآنِ مَنْظُومًا وَلَا مَثُورًا إِذَا قَرَعْتَ السَّمْعَ خَلَصَ لَهُ إِلَى الْقَلْبِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْحَلَاوَةِ فِي حَالٍ وَمِنَ الرَّوْعَةِ وَالْمَهَابَةِ فِي حَالٍ آخَرَ مَا يَخْلُصُ مِنْهُ إِلَيْهِ قَالَ تَعَالَى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} ؛ وَقَالَ: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}) انتهى.^٢

وكان طبيعيًا أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة، ذروة جعلت العرب حين يستمعون إلى آية تعنو وجوهم لربهم، ويجرون ركعا وسجداً مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، وفي ذلك يقول جل وعز: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} ويقول: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}. ولا يزال هذا الشعور الذي كان يختلج في قلوب العرب الأولين تخفق به القلوب في

١ - بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص: ٢٦، ٢٧)

٢ - بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص: ٧٠)

كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوي، ولما يؤثر به في صميم الوجدان الروحي، وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً، ولا نثرًا مسجوعًا، وإنما هو نظمٌ بديعٌ، فصلت آيأته بفواصلٍ تنتهي بها، وتطمئنُ النفسُ إلى الوقوف عندها.

وتتنوع الفواصل بين طوال، وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته وتنوع المحاطبين، فقد كان يغلب عليه الإيجاز والإشارة في بدء الدعوة قبل الهجرة، حين كان يدعو إلى عبادة الله ونبذ الديانة الوثنية، والإيمان بالبعث والنشور، فلما انتقل الرسول عليه السلام إلى المدينة غلب عليه البسط، والإطناب لبيان نظم الشريعة، وما ينبغي أن يكون عليه نظام الحياة الاجتماعية، مما تقتضيه مصالح البشر في حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة.^١

قال الراغب: (فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزيدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وحكمهم، وإليها مفرع حدّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة).^٢

(والإعجاز في كلام الله تعالى أن يُؤدّي المَعنى بطريق هُوَ أبلغ من جميع ما عداه من الطرق. فإعجاز كلام الله تعالى إنّما هُوَ بهذا الطريق وهُوَ كونه في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة على ما هُوَ الرّأي الصّحيح).^٣

وإنما أطلت النفس في النقل عن أئمة الإسلام ردًا على من يتوهم أن القرآن ككلام البشر، يعتريه من الضعف ما يعتري كلام البشر، أو أن فصاحته يدانيها كلام الفصحاء، ويقاربا أساليب البلاغاء.

١ - الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص: ٤٦)

٢ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٥)

٣ - دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١/ ٩٧)

تدبّر - ١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }^١.

افتتح الله تبارك تعالی كتابه الكريم بِاسْمِهِ سبحانه، لما له من البركة العظيمة، والخير العميم، وكذلك كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتتح كتبه إلى الملوك بِسْمِ اللَّهِ تعالی كما قال في كتابه إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى....."^٢.

وافتح سُليمانُ عليه السلام بها كتابه إلى ملكة سبأ، كما قال تعالی: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }^٣.

وفي افتتاح الله تعالی كتابه بالبسملة تعليمٌ لنا لِنفتَحَ كُلَّ قَوْلٍ وَكُلِّ فِعْلٍ بِاسْمِهِ سبحانه وتعالی. وكم بين أمرٍ ذُكِرَ اسم الله عليه، وآخر لم يذكر اسم الله عليه من البون الشاسع، والفارق العظيم.

هذا مباركٌ وهذا أبتُرُ مقطوعُ البركة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }^٤.

١ - سُورَةُ الْفَاتِحَةِ: الآيَةُ / ١

٢ - رواه البخاري- بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، حديث رقم: ٧، ومسلم- كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، حديث رقم: ١٧٧٣

٣ - سورة النمل الآيَةُ / ٣٠

٤ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ: الآيَةُ / ٧٨

تدبّر - ٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ١.

أنت لم تُخَلِّقْ عبثًا، ولم تُتْرَكْ سُدى، لك ربٌّ، فأنت واحد من الْعَالَمِينَ.

يتعهدك ربُّكَ بالرعاية، ويدبر لك أمرك، يطعمك إذا جعت، وَيَشْفِيكَ إذا مرضت، وينصرك إذا ظَلَمْتَ.

هو معك لا يغيب، يذكرك فلا ينسى.

لو أحنيت جبهتك له رفعك، ولو بكيت له رحمك، لو سألته أعطاك، ولو سكت ابتداك، ولو زللت واستغفرته غفر لك، إنه الله أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين.

فكن له كما يريد، يسبغ عليك عطاياه، ويعطيك فوق ما تريد.

١ - سُورَةُ الْفَاتِحَةِ: الآية/ ٢

تدبّر - ٣

قال الله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ١.

الله تعالى مصدر كل خير.

وهو تعالى مبدئ كل نعمة.

وهو ولي كل فضل.

فله وحده كل حمد.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

تدبّر - ٤

قَالَ اللهُ تَعَالَى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }^١.

تأمل لفظ: { الْحَمْدُ } وفيه: الألفُ واللّامُ، لِلاِسْتِعْرَاقِ، أي: جَمِيعِ المَحَامِدِ ثَابِتَةً لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، ولفظ { الْعَالَمِينَ }، الألفُ واللّامُ فيه للعموم، فكل ما في الكون خلقه، وما من مخلوق إلا وهو مستغرق في نعمه، قد احاطته فضائله، وعمته فواضله، كما قال تعالى: { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً }^٢.

فكما شملت نعمه الخلائق، استحق سبحانه جميع المحامد؛ لذلك جمع الله تعالى بين لفظ: { الْحَمْدُ } الذي يفيد الاستغراق، ولفظ: { الْعَالَمِينَ } الذي يفيد العموم هنا، وجمع بينهما أيضاً في قَوْلِهِ تَعَالَى: { فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }^٣.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٢

٢ - سورة لقمان: الآية/ ٢٠

٣ - سورة الجاثية: الآية/ ٣٦

تدبّر - ٥

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} ١.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ اسمان لله تعالى من أسمائه الحسنی يدلان على صفة عظيمة من صفات الله تعالى وهي صفة الرحمة، الأول يدل على الرحمة العامة بسائر الخلق، والثاني يدل على رحمة خاصة، والمؤمن له من هاتين الصفتين النصيب الأوفر، فهو داخل مع سائر الخلق بالاسم الأول، وله رحمة خاصة بالاسم الثاني.

والله عز وجل وسعت رحمته كل شيء؛ كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} ٢.

فأشقى الناس كل الناس من ليس له في رحمة الرحمن الرحيم نصيب.

اللهم أدخلنا في رحمتك، واجعل لنا منها أوفر الحظ والنصيب.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٣

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ١٥٦

تدبّر - ٦

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} ١.

فِي تَكَرَّرِ صِفَةِ الرَّحْمَنِ، وَصِفَةِ الرَّحِيمِ تَنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، لِيَعِظُمَ أَمَلُ الْعَبْدِ فِي الْعَفْوِ إِذَا زَلَّ، وَيَقْوَى رَجَاؤُهُ فِي الْمَغْفِرَةِ إِذَا هَفَا.

وَأَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدِهَا.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى أَنْزَالَ الْكُتُبَ، وَإِرْسَالَ الرُّسُلِ.

تدبّر - ٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ١.

يَوْمَ الدِّينِ تتكشف الحقائق، يُسَلَّبُ العبدُ من كل شيء، فلا مَلِكٌ، ولا اختصاص، ولا ألقاب، يأتي ملوك الدنيا أصحاب القصور الشاهقة، والمراكب الفارهة، لا يملك أحدهم خرقة يوارى بها سواته، فضلا عن دنه من الناس.

يومئذٍ يرى الناس عين اليقين تأويلَ قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ} ٢.

وتصك مسامعهم: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} ٣.

وتخلع قلوبهم: «أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ؟» ٤.

اللهم لا تفضحنا بين خلقك ولا يوم العرض عليك.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٤

٢ - سورة فاطر: الآية/ ١٥

٣ - سورة غافر: الآية/ ١٦

٤ - جزء من حديث رواه البخاري- كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، حديث رقم: ٤٨١٢، ومسلم- كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم: ٢٧٨٧، عن أبي هريرة

تدبّر - ٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ١.

يوم لا يملك العبد شيئاً، يوم لا يملك ما يسد جوعته، يوم لا يملك ما يروي غلته، يوم لا يملك ما يوارى سواته، عندها فقط سيوقن بحاجته، وعندها فقط سيدرك مدى فقره، كان يقرأ قبلها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ} ٢.

ولكنه ما كان يظن أن يبلغ به الفقر إلى هذا الحد، كان يقول مالي، ونسي أو تناسى أن الله تعالى قال: {وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} ٣.

ولما أغناه الله بعد فقره، ما أراد أن يعرف مع من كان هذا المال قبله، وكيف انتقل من يد كانت تحوزه، وربما كانت به ضنينة، وكيف سلبته استلاباً.

نعم سلبه سلباً، وكان يقول قبل أن يسلبه: {إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} ٤.

ولم يدر المسكين كم من الناس قبله قال مقالته، ثم فارقه مكرهاً، فلم ينفعه علمه، ولم يسعفه فهمه، ودكّر فلم يتذكر، وعلم فلم يتعلم، ونسي أن المال في يده ودیعة، وأنه فيه مستخلف، {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} ٥.

وهو مع ذلك أشد فقراً لله تعالى في أنفاسه التي تجري، ودمائه التي تتدفق، وأهدابه التي تطرف.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٤

٢ - سورة فاطر: الآية/ ١٥

٣ - سورة النور: الآية/ ٣٣

٤ - سورة القصص: الآية/ ٧٨

٥ - سورة الحديد: الآية/ ٧

وهو أشدُّ احتياجًا إلى الهداية، ونور البصيرة، وثبات الإيمان، من حاجته إلى الهواء الذي يتنفسه،
والضياء الذي يبصر به.

وكيف لا؟

وهو لله.

وإلى الله راجع. {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ١.

تدبّر - ٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ١.

تقديم الضمير المنفصل: {إِيَّاكَ}، على الفعل: {نَعْبُدُ}، و {نَسْتَعِينُ}، يدل على الإختصاص، ومعناه لا نعبد سواك، ولا نستعين بغيرك.

فليس لنا رب سواه نعبد، وليس لنا رب سواه نرجوه، وليس لنا رب سواه نتوكل عليه، وليس لنا رب سواه نسأله ونستغيث به.

وكيف نعبد غيره، أو نستعين بسواه، وهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرب وما دونه مربوب.

وكيف نرجوا غيره، أو نخشى سواه، ولا يملك النفع والضرر غيره.

استشعر هذا المعنى أنك ليس لك غيره ينصرك ويعينك - والعالم بأسره يكد لك ويمكر بك ويتربص بك لا لشيء إلا لأنك مؤمن موحد.

وردد في نفسك: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

كما يقول المستضعفون من أهلك في أرض الرباط: (ما لنا غيرك يا الله).

تدبّر - ١٠

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ١.

لن تصل إلى الله تعالى، إلى رضوانه، وإلى جنته، إلا باستقامتك على أمره.

ولن تتوصل إلى الاستقامة على أمره، إلا بتوفيقه، لذا شرع لك هذا الدعاء العظيم: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.

اللهم اهدنا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ووفقنا لما تحبه وترضاه.

تدبّر - ١١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ١.

بدأ الله تعالى بذكر الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لأنه المنهج القويم، ولأنه الحق الذي لم يخالطه باطل، ولأنه السبيل الموصل إليه تعالى.

ثم أخبر أنه طريقُ الصالحين، وسبيلُ الفائزين، ونهجُ السالكين إليه، وأثنى على من سلكه.

وأخبر سبحانه أنهم أولى الناس بنعمه، ولم لا؟

وهم أهل طاعته، له ذلت نفوسهم، ولعظمته خضعت رقابهم.

ولهم تزيين جنته، فهم أولى الناس برحمته، وهم أقرب الناس لفضله.

وفي تقدم الصِّرَاطِ على الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إشارة إلى أن الرجال يعرفون باتباعهم الحق، ولا يعرف الحق بالرجال.

فاجعل ميزانك دائماً الحق، ولا تقلد دينك الرجال، فمن قلد دينه الرجال ضلّ.

اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، لا نريد بك بدلاً، ولا نبغي عن عبادتك حولاً.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٦، ٧

تدبر - ١٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ١.

الناسُ أصنافٌ ثلاثةٌ لا رابعَ لهم.

صنفتُ لآح لهم علم الهدى فقصدوه، وعلموا الحق فاتبعوه، فهم المخصوصون بنعمة الله، المبشرون برضوانه، الفائزون بجنته.

وصنفتُ لاحت لهم شمس الهداية فعموا عنها، وأسمعهم داعي الله فأصموا آذנם، واستنار لهم سبيل الرشاد فتنكبوه، فباؤوا بغضب الله، لعنادهم وحيادهم عن الحق قصداً.

وصنفتُ في ظلمات الضلال تائهون، وفي بحار الجهل غارقون، لم يعرفوا حقاً، ولم يهتدوا لخير، يتخبطون في الغي، ويتمرغون في الباطل تمرغ الحُمُر في التراب.

{أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ} ٢. الصنف الأول هم المؤمنون الموحدون، والصنف الثاني هم اليهود، والصنف الثالث هم النصارى.

فاحمد الله على فضله عليك، واسأله دوماً الهداية والثبات على الإسلام.

اللهم ثبتنا على دينك حتى نلقاك.

١ - سورة الفاتحة: الآية / ٧

٢ - سورة الأعراف: الآية / ١٧٩

تدبر - ١٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ١.

مخطئ من يظن أن اليهود والنصارى بعد بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم نصيب في الجنة؛ فإن الجنة من أجل نعم الله تعالى، وهم ليسوا ممن أنعم الله عليهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» ٢.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٧

٢ - رواه مسلم - كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، حديث رقم: ١٥٣

تدبّر - ١٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ }^١.

قرأ أحد الغربيين هاتين الآيتين ثم أعلن إسلامه، فلما سئل عن سبب إسلامه قال: هذا الكلام لا يقوله إلا الله، فإن النقص من شأن البشر.

قلت صدق والله.

فإنه لا يستطيع أحد من البشر أن يؤلف كتاباً، ثم يقول كلامي صواباً لا يحتل الخطأ.

وقديماً قال القاضي عبد الرحيم البيساني: (إني رأيت أنه لا يكتب أحدٌ كتاباً في يومه إلا قال في غَدِهِ: لَوْ عُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ وَلَوْ زِيدَ هَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ. وهذا أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر).^٢

١ - سورة البقرة: الآية / ١ ، ٢

٢ - شرح الإحياء للزبيدي (٣/١)

تدبّر - ١٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} ١.

تحدى الله تعالى العرب وهم أساطين البلاغة، وأرباب الفصاحة، أن يأتوا بمثل القرآن مع أنه من الحروف التي يتكلمون بها، {الم}، {حم}، {عسق}، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، فعجزوا، ثم تحداهم، أن يأتوا بسورة من مثله، ولو كانت بقدر أصغر سوره، فعجزوا، فتحدى الأنس والجن فعجزوا، وأنى لهم أن يعارضوه وهو كلام الله العزيز الحكيم.

قَالَ تَعَالَى: {قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} ٢.

ومع ذلك يفرط كثير من المسلمين في تلاوته وتدبره وحفظه والعمل به.

١ - سورة البقرة: الآية / ١، ٢

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٨٨

تدبر - ١٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} ١.

هَذَا الْقُرْآنُ هُدًى وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَمُرْشِدٌ إِلَى كُلِّ سَعَادَةٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ مَرَضِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ، وَرَحْمَةٌ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ.

وَأَمَّا مَنْ كَانَ غَارِقًا فِي بَحْرِ الْخِذْلَانِ، وَتَائِهًا فِي مَقَاوِرِ الْحِرْمَانِ، وَمَشْغُوفًا بِمُتَابَعَةِ الشَّيْطَانِ، كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ فِي آذَانِهِ وَقْرًا، وَكَانَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ عَمًى.

قَالَ تَعَالَى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} ٢.

فانظر من أي الصنفين أنت، ومع أي الفريقين تريد أن تكون.

١ - سورة البقرة: الآية / ٢

٢ - سورة فصلت: الآية / ٤٤

تدبر - ١٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} ١.

ليس المقصود أن تصلي ولكن المقصود أن تقيم الصلاة، فكم من مصلي لا ينتفع بصلاته، ألم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسيء صلاته: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ٢.

ولأجل هذا لم يقل الله تعالى: صلوا، وإنما قَالَ تَعَالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، في كل موضع ذكرت فيه الصَّلَاةُ، كما قَالَ تَعَالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} ٣.

وَقَالَ تَعَالَى: {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} ٤.

فاحرص على أن تصلي صلاة تليق بربك، تكتمل فيها أركانها، وشروطها، وواجباتها، تتم ركوعها، وسجودها، تُقبل فيها بقلبك على سيدك، تستحضر فيها قلبك وعقلك، وإلا فاتخذ لك ربًا يليق بصلاتك.

«إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَلِّيَ الصَّلَاةَ وَمَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عَشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثَمَنُهَا، سُبْعُهَا، سُدْسُهَا، خُمْسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا» ٥.

{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي} ٦.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٣

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الْأَذَانِ، بَابُ وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ فِي الصَّلَاةِ كُلِّهَا، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَمَا يُجْهَرُ فِيهَا وَمَا يُخَافَتُ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٧٥٧، وَمُسْلِمٌ- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٣٩٧

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٤٣

٤ - سورة يونس: الآية/ ٨٧

٥ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٨٨٩٤، بسند صحيح

٦ - سورة إبراهيم: الآية/ ٤٠

تدبّر - ١٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} ١.

ما تنفقه هو مِمَّا رَزَقَكَ اللهُ، يَسَّرَ لَكَ أَسْبَابَهُ، وَذَلَّلَ لَكَ سُبُلَهُ، وَسَاقَهُ إِلَيْكَ سَوَاقًا، وَقَدَّرَهُ لَكَ أَزْلًا.

النفس البشرية جبلت على حب المال، وفطرت على الشح والبخل.

ومن رحمة الله تعالى أنه ما أمرنا بالخروج من أموالنا، وبذلها كلها للفقراء والمساكين، بل أمرنا بجزء يسير من جملة المال، ووعدنا عليه القدر العظيم من الأجر.

ومع ذلك يبخلُ بعض الناس بهذا اليسير، فيمنعوا زكاة أموالهم، وما علموا أن «الصَّدَقَةَ بُرْهَانٌ» ٢.

بُرْهَانٌ عَلَى صَدَقِ الْإِيمَانِ.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٣

٢ - رواه مسلم - كِتَابِ الطَّهَّارَةِ، بَابِ فَضْلِ الْوُضُوءِ، حَدِيثِ رَقْمٍ: ٢٢٣

تدبر - ١٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} ١.
الإيمانُ كلُّ لا يتجزأ؛ فمن صدَّق برسولٍ وكذَّبَ غيره من الرُّسلِ لا يكونُ مؤمناً، ومن أقامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، ولم يُؤْمِنْ بِالْقَدْرِ لا يكونُ مؤمناً، فَلَا يَصِحُّ إِيمَانُ أَحَدٍ إِلَّا إِذَا اكْتَمَلَتْ عِنْدَهُ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُ الْإِيمَانِ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ٢.

ومن الإيمانِ بالرسولِ، الإيمانُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من صَلَاةٍ، وصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَحَجٍّ، وغيره.

ومن الإيمانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، الإيمانُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْحِسَابِ، وَالْمِيزَانِ، وَالصُّحُفِ، وَالصِّرَاطِ، وَالْجَنَّةِ، وَالنَّارِ.

فاحذر أن تلقى الله تعالى وعندك في الإيمان خلل.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٤

٢ - جزء من حديث رواه البخاري- كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، حديث رقم: ٥٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم- كتاب الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله حديث رقم: ٨، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تدبر - ٢٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ١.

تأمل قول الله تَعَالَى: {عَلَى هُدًى}، لتعلم كيف يرفع الإيمان صاحبه؛ {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ٢.

ويرفع القرآن أهله، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} ٣.

وَقَالَ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ» ٤.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٥

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١٣٩

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ١٧٦

٤ - رواه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويُعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقهه، أو غيره فعمل بها وعلمها، حديث رقم: ٨١٧

تدبّر - ٢١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ١.

إذا اتنى عليك الله تعالى فلا يضرك من مَدَحٍ أو ذَمٍّ بعد ذلك.

وإذا زكى الله تعالى عبداً، فمن الذي يُؤثّر فيه بجرحٍ، أو طعنٍ؟

ليكن لسان حالك مع ربك:

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ **** وَكُلُّ الَّذِي فَوقَ التُّرابِ تُرابٌ

تدبر - ٢٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ١.

بعض الناس طبع الله على قلوبهم، فلا تؤثر فيهم موعظة، وتنفعهم رؤية معجزة، لأن الإيمان منحة ربانية، وهبة إلهية، ومهما بذل الداعي إلى الله من جهد، فلا يملك أن يهدي من أضلَّ الله، هذا أمر ينبغي ألا يغيب عن أذهان الدعاة، حتى لا يأسوا على ما فاتهم حين لا يستجيب لهم كثير من المدعوين.

ولأن الأمر أمرٌ غيبي لا يطلع عليه إلا الله تعالى، أمرنا أن ندعوا الناس جميعاً، وأن نأخذ بأسباب القبول والاستجابة للدعوة، من الحكمة، والموعظة الحسنة، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} ٢.

فإذا دعوت إنساناً، فوجدته يصدُّ عنك صدوداً، ويعرض عنك إعراضاً، ويقابل دعوتك بالسخرية والاستهزاء، فاعلم أنه قدرٌ سابق، ومشيةٌ لله نافذة؛ قال تعالى: {مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ} ٣.

وَلَا تَتَأَسَّفْ لِأَجَلِهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِ، ف{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ٤.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٦

٢ - سورة النحل: الآية/ ١٢٥

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ١٨٦

٤ - سورة القصص: الآية/ ٥٦

تَدَبَّر - ٢٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ١.

احذر أن تتمادى في الباطل، أو أن تُعْرِضَ عن الحق، فقد ذكر الله تعالى قومًا تَمَادَوْا فِي الْبَاطِلِ وأعرضوا عن الحق؛ فَحَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى، جَزَاءً وَفَاقًا عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ وَتَرْكِهِمُ الْحَقَّ، واحمد الله تعالى على نعمة الهداية، واعلم أن ما أنت فيه محض فضل من الله تعالى، ليس لعقل عندك أو دهاء، ولا لفتنة خُصِصَتْ بِهَا أو ذكاء، بل الهداية محضٌ توفيقٍ من الله تعالى، فَمَنْ يَشَأْ وَفَقَّهُ بِفَضْلِهِ، وَمَنْ يَشَأْ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. غيرك لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، اصطفاك الله من الخلق لدينه، واجتباك فهداك لسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واعلم أنك ميسر لما خلقت له، فاحذر أن تطفئ نورًا خصك به، وهداك إليه، أو تُعْرِضَ عن فضل ذلك عليه، واحذر أسباب الفتن.

وتذكر: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} ٢.

١ - سورة البقرة: الآية / ٧

٢ - سورة المائدة: الآية / ٤١

تَدَبَّر - ٢٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} ١.

ذكر الله تعالى أَرْبَعَ آيَاتٍ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَيْنِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً فِي نَعْتِ الْمُنَافِقِينَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحُطْرِ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِمْ، وَالوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَفْتَشَّ فِي نَفْسِهِ، وَأَنْ يَبْقَى دَائِمًا عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا أَوْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ.

قال الحسن رحمه الله: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ. يعني النِّفَاقَ.

فهل تعرف صفاتهم؟

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ النِّفَاقِ وَالشَّقَاقِ وَمِنْ سَيِّئِ الْأَخْلَاقِ».

تَدَبَّر - ٢٥

- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ }^١.
- من صفات المنافقين المخادعة: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ }^٢.
- ومن صفاتهم الكسل عن الصلوات: { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى }^٣.
- ومن صفاتهم العمل من أجل الناس: { يُرَاءُونَ النَّاسَ }^٤.
- ومن صفاتهم قلة ذكر الله تعالى: { وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا }^٥.
- والسخرية والاستهزاء بالدين وأهله: { قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }^٦.
- وموالاة أعداء الله ومعاداة أوليائه: { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ }^٧.
- والشك والتردد بين الإيمان والكفر: { مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ }^٨.
- ومن صفاتهم الكذب، والخيانة، والغدر، وخلف الوعد، واللجاج في الخصام.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٨

٢ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ١٤٢

٣ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ١٤٢

٤ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ١٤٢

٥ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ١٤٢

٦ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ١٤

٧ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الآيَةُ / ٥٢

٨ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ١٤٣

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^١.

قل لي بريك.

كم فينا من تلك الصفات؟

١ - رواه البخاري- كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: ٣٤، ومسلم- كتاب الإيمان، باب بيان خصال

المنافق، حديث رقم: ٥٨

تَدَبَّر - ٢٦

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} ١.

مسكين ذلك الذي يُعَرِّضُ نفسه لسخطِ الله تعالى، الَّذِي يُخَادِعُ اللَّهَ، فيظهر الصلاح، ويضمّر أشدَّ الفسادِ، ويبيدِي للناسِ إيمانًا، ويخفي عنهم كفرًا وعدوانًا.

فكيف به إذا لقي الله تعالى، إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، وَكَيْفَ بِهِ إِذَا شَهِدَتْ عَلَيْهِ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ، وَبَدَتْ مِنْهُ السُّوءَاتُ وَالْفَضَائِحُ، وَكَيْفَ بِهِ إِذَا ابْتُلِيَتْ هُنَالِكَ السَّرَائِرُ، وَانْكَشَفَ الْمَخْفِيُّ فِي الضَّمَائِرِ.

كيف به إذا عُرضَ على الله تعالى، مغلولةً يداهُ إلى عنقه، كهيئة العبدِ الآبقِ، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} ٢.

ماذا سيقول؟

وبماذا سيجيب؟

إذا قيل له: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} ٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٩

٢ - سُورَةُ الْحَاقَّةِ: الآيَةُ / ١٨

٣ - سُورَةُ الرَّحْمَةِ: الآيَةُ / ٨٠

تَدَبَّر - ٢٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَدَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }^١.

القلوب تمرض كما تمرض الأبدان، وتموت كما تموت، ومرضها أشد فتكًا من مرض الأبدان، وموتها ليس له حتى النشور نشور.

وأشد أمراض القلوب فتكًا، وأعظمها خطرًا، مرض الشبهة، ومرض الشهوة.

فإذا آنست من قلبك تغيرًا، واستشعرت منه وهنا في الطاعة وتقلبًا.

إذا وجدت قسوة وجمودًا، إذا رأيت منه إعراضًا وتبلدًا.

فبادر إلى الطبيب، وسارع إلى الدواء.

وأعظم طبيب، وأنجع دواء، هو القرآن وذكر الله تعالى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَنُنزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }^٢.

وَقَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }^٣.

اللهم طهر قلوبنا.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ١٠

٢ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ / ٨٢

٣ - سُورَةُ يُوسُفَ: الْآيَةُ / ٥٧

تَدَبَّر - ٢٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} ١.

كم من مفسد ملأ الأرض ضحيجًا بأنه من المصلحين!

وكم من مجرم لبس مسوخ الناسكين!

ألم تسمعوا إلى ما قاله اعترى المجرمين، وأشد المفسدين فرعون؟

قَالَ: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} ٢.

فلا تغترر بقول قائل، حتى يُصدّق فعله قوله.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ١١

٢ - سُورَةُ غَافِرٍ: الْآيَةُ / ٢٩

تَدَبَّر - ٢٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} ١.

إن أسوء حال يمكن أن يكون عليه إنسان أن تنتكس فطرته، فيرى الأشياء على غير حقيقتها، يفسد ويظن أنه مصلح، ينشر الباطل ويظن أن يدافع عن الحق، يأمر بالمنكر ويظن أنه يفعل المعروف.

يرى الخير شرًا ويرى الشر خيرًا، ويرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقًا، يرى المعروف منكراً ويرى المنكر معروفاً.

ومن كان هذا حاله فموته خير من حياته.

وبعض الناس ميت وهو يمشي على الأرض، يذهب ويجيء، يضحك ويتكلم، وهو في الحقيقة ميت لأنه مات قلبه، قِيلَ لِحَدِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ؟ قَالَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَعْرُوفَ بِقَلْبِهِ، وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ» ٢.

وَعَنْ عَاصِمٍ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ الْحُسَيْنَ يَتَمَثَّلُ بِبَيْتِ شَعْرٍ قَطُّ إِلَّا هَذَا الْبَيْتَ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ **** إِمَّا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَيَكُونُ حَيًّا وَهُوَ مَيِّتُ الْقَلْبِ» ٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الآيَةُ / ١٢

٢ - رواه ابن أبي شيبة- حديث رقم: ٣٨٧٣٢

٣ - رواه ابن أبي شيبة- حديث رقم: ٢٦٥٧٠

تَدْبِير - ٣٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ }^١.

هذا حال بعض الناس، يُفْسِدُونَ وَلَا يَشْعُرُونَ، إِمَامُهُمْ وَقُدُوتُهُمْ فِرْعَوْنُ الَّذِي كَانَ يَقُولُ: { ذُرِّي
أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }^٢.

ماتت قلوبهم وهم بين الناس أحياء، ولموت القلب أسبابٌ، منها:

فساد المعتقد، وقلة ذكر الله، ومعاداة أولياء الله، وموالاتة أعداء الله، والإسراف على النفس في
الذنوب والمعاصي، وكلها صفات المنافقين.

قَالَ حَدِيثُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ
عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا،
نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا
مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»^٣.

اللهم احببي قلوبنا بطاعتك، وأنر بصائرنا بذكرك، وألمنا رشدنا، وأفض علينا من إحسانك.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ١٢

٢ - سُورَةُ غَافِرٍ: الْآيَةُ/ ٢٦

٣ - رواه مسلم - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، وَأَنَّهُ يَأْرُزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ:

تدبر - ٣١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ...}.^١

تأمل ما الذي صرف هؤلاء المنافقين عن الإيمان، إنه الكبر الذي يجعلهم يستنكفون عن أي شيء يجمعهم بهم حتى ولو كان الإيمان.

قَالَ قَوْمُ نُوحٍ: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}.^٢

يَقُولُونَ: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَنَتَّبِعُكَ، وَنَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ بِهَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَصَدَّقُوكَ، وَهُمْ أَرَادَلْنَا.

وهي نفس العلة التي من أجلها أعرض المشركون عن الإيمان واتباع الحق، فقد سألوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَيَجْلِسَ مَعَهُمْ بِمَجْلِسًا خَاصًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ

تَعَالَى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}.^٣

تأمل هذا مع قولِ اللَّهِ تَعَالَى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}.^٤

لتعرف أن الكبر أعظم صارفٍ للعبد عن العلم، والطاعة، والإيمان، بل والجنة.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُجِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرٌ الْحَقُّ، وَغَمَطُ النَّاسِ».^٥

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٣

٢ - سورة الشعراء: الآية/ ١١١

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ٥٢

٤ - سورة الأعراف: الآية/ ١٤٦

٥ - رواه مسلم - كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٩١

بَطْرُ الْحَقِّ: هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبّرًا.

وَعَمَّطُ النَّاسِ: احتقارهم، وازدراؤهم.

اللهم إنا نعوذ بك من الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق.

تدبر - ٣٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} ١.

أصلُ السَّفَه الحِفَّة والطَيْشُ، وهو علامةٌ على الحُمقِ، ونَقْصِ العَقْلِ، وغلبة الجَهْلِ، ورقة الدين، وقد توجد في إنسانٍ مجتمعةً، فيكون قد بلغ الغاية في السفه.

وقد يوجد فيه بعضها، ففيه من السفاهة بقدر ما فيه من علاماتها.

والعجيبُ أن السُّفَهَاءَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، فقد يُشارُ إلى بعضهم بالبنان، ويقال عنهم النخبة، ويوصفون بالملأ، وهم سُفَهَاءٌ ليس فيهم رجلٌ رشيد.

فلا تغتر بأقوالهم، ولا تخدعنك أبواقهم، ورميهم لأهل الإيمان بما ليس فيهم؛ فلم يسلم منهم الأنبياء؛ فقد قيل لرسول من رسل الله عليهم السلام: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} ٢.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٣

٢ - سورة الأعراف: الآية / ٦٦

تدبّر - ٣٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} ١.

بعض الناس لا يُوثِّقُ فيهم طرفة عينٍ.

كانوا فيما مضى يُعرفون في لحن القول، واليوم يُصَرِّحُونَ بعدائهم للدين وأهله.

ومع أن الله تعالى حذرنا أن نتخذهم بطانة، ونطلعهم على بواطن أمورنا، فإن كثيراً منهم يتولى أرفع المناصب.

فلا عجب أن آلت أمورنا إلى ما آلت إليه.

تدبر - ٣٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ١.

أعظم الناس غفلة من حاد عن منهج الله، وهو يحسب أنه بمنأى عن عقاب الله.

وقد يزيده الله تعالى من النعم، ويفتح عليه سبل الرزق استدراجًا له، ومكرًا به؛ ليزيده الله تعالى

عذابًا، كما ازداد إثمًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا

تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} ٢.

وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

أَخَذْنَاَهُمْ بَعْتَةً فِإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} ٣.

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَكَرَ بِالْقَوْمِ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ؛ أُعْطُوا حَاجَتَهُمْ ثُمَّ أُخِذُوا. ٤.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٥

٢ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٨

٣ - سورة الأنعام: الآية / ٤٤

٤ - رواه ابن أبي حاتم في التفسير - حديث رقم: ٧٢٩٣

تدبّر - ٣٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} ١.

من خسر إيمانه فقد خسر كل شيء، ولو كان المقابل الدنيا بأسرها.

فكيف بمن باع إيمانه بدنيا غيره؟

تدبر - ٣٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ }^١.

قال ابن القيم رحمه الله: قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ }، وَمَ يَقُولُ: ذَهَبَ نُورُهُمْ، وَفِيهِ سِرٌّ بَدِيعٌ وَهُوَ انْقِطَاعُ تِلْكَ الْمَعِيَةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، و{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }^٢.

و{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }^٣.

فَذَهَابُ اللَّهِ بِذَلِكَ النُّورِ انْقِطَاعُ لِمَعِيَتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ خَصَّ بِهَا أَوْلِيَائِهِ فَفَطَعَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ نُورِهِمْ وَلَا مَعَهُمْ فَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }^٤.

وَلَا مِنْ: { كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ }^٥.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٧

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٥٣

٣ - سورة النحل: الآية/ ١٢٨

٤ - سورة التوبة: الآية/ ٤٠

٥ - سورة الشعراء: الآية/ ٦٢، اجتماع الجيوش الإسلامية (٦٤ / ٢)

تدبر - ٣٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } ١.

من لم ينتفع بما سمع، ولم يستجب لما دعي إليه، ولم يتعظ بما رأى من البراهين، فليس لسمعه، ولا لبصره، ولا لمنطقه فائدة.

كما قال الشاعر:

لَمْ تَفْتَحْ بِِي دَوَاعِي النَّفْسِ مَعْصِيَةً ****
إِلَّا وَبَيْنِي وَبَيْنَ النُّورِ ظُلْمَاءُ

ومن كان هذا حاله، ومن كان هذا دأبه، وديدنه، فإنه يخشى عليه أن يسود قلبه، وتعمى بصيرته، فلا يُرتجى منه خيرٌ، ولا يُنتظر منه نفعٌ.

تدبر - ٣٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ} ١.

العجب ممن يحذر الموت، ويحيد عنه وتحاشاه، ويظن أنه بمنأى عنه!

فلا يتوب ولا ينيب، ولا يرجع عن غيه!

وهو في قبضة الله تعالى، ليس له منه مفر.

وأين من الله المفر؟

إذا خفت من الله ففر إليه، فليس لك ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

{فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} ٢.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٩

٢ - سورة الذاريات: الآية / ٥٠

تَدَبَّر - ٣٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }^١.

أَعْظَمُ مُؤَلِّدٍ لِلتَّقْوَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ هُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ اللَّهُ الْعِبَادَةَ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ.

وَفَصَّلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صُورَ الْعِبَادَةِ فَقَالَ عَنِ الذِّكْرِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ: { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }^٢.

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الصِّيَامِ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }^٣.

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ اتِّبَاعِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَدِينِهِ الْقَوِيمِ: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }^٤.

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْبِرِّ وَهُوَ جَمَاعُ الدِّينِ: { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.. }

إِلَى أَنْ قَالَ: { أَوْلِيكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }^٥.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢١

٢ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ / ١٧١

٣ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ١٨٣

٤ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الْآيَةُ / ١٥٣

٥ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ١٧٧

فمن ابتلي بذنب استعصى عليه الشفاء منه، والإفلاخُ عنه فليكثر من العبادة، فيدبمُ القيام، ويدبمُ الصيام، ويلزُم ذكر الله تعالى، لذلك يجد كثيرٌ من العصاة في رمضان سلوةً عن الذنوبِ والمعاصي لا يجدوها في غيره.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ نَزَعَ اللهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الشَّهَوَاتِ.

اللَّهُمَّ آتِ نَفُوسَنَا تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا.

تَدَبَّر - ٤٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ١.

العجب كل العجب ممن يتقلب في نعم الله تعالى، فيفتersh أرضه، ويلتحف سماءه، ويأكل من فضله وجوده وإحسانه، ثم يعبد غيره.

{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ٢.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٢

٢ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ / ١٧

تَدَبَّر - ٤١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ١.

ألمست تعلم أنك خلق من خلقه؟

ألمست تفتقر إليه في كل حركة وسكنة؟

أليس كل فضلٍ وخيرٍ، الله مصدره؟

أليس كل ما في الكون صنعه، وخلقته؟

فَلَا تَجْعَلْ لِلَّهِ أَنْدَادًا، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا نِدَّ لَهُ؟

تَدَبَّر - ٤٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }^١.

تأمل كيف صَدَّرَ اللهُ تعالى الآية بقوله {إِنْ} التي تفيد الشك ولم يبدأها ب (إذا) التي تفيد التحقيق؛ لأن ارتيابهم في القرآن لا يُعْتَدُّ به، بل هو بمنزلة العَدَم.

بل كثير منهم يعلمون أن القرآن كلام الله تعالى، لذلك ما كان اعتراضهم عليه، {وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}^٢.

ولأنَّ هذا الارتياب يزول بأدنى تأمل، إذا كان الإنسان مقصده الحق، ومراده الاهتداء للصواب.

كما قال الله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}^٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ٢٣

٢ - سُورَةُ الرَّحْمَةِ: الْآيَةُ/ ٣١

٣ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/ ٨٢

تَدَبَّر - ٤٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا... } ١.

تأمل هذا التحدي العجيب في قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا}، وكيف عجز أعداء الإسلام على مدى خمسة عشر قرناً عن معارضة القرآن، والإتيان بسورة من مثل أصغر سورة، مع حقدهم الشديد عليه، وسعيهم بكل ما أوتوا من قوة لطمس معالمه، وإطفاء نوره.

ليتبين لك ضعف الباطل، وهشاشة الشرك، واضمحلال الكفر، وأن آية واحدة من كتاب الله قطعت عروق الشرك، وأزهقت روح الكفر.

{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} ٢.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٣، ٢٤

٢ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ / ٨١

تَدَبَّر - ٤٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }^١.

هذه صفة النار، وهذا حال أهلها.

حَطَبُهَا الَّذِي يُلْقَى فِيهَا جُثَثُ بَنِي آدَمَ، وَحِجَارَةُ الْكِبْرِيَّتِ.

بعيدٌ قعرها، شديدٌ حرُّها.

وَطَعَامُهُمْ فِيهَا الزَّقُومُ، طَعَامٌ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ.

وَشُرْبُهُمْ فِيهَا الْحَمِيمُ: { يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ }^٢.

{ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ }^٣.

قد غلت أعناقهم، فهم مع ذلك مكبلون بالحديد، مقيدون بالأصفاد، يُسْحَبُونَ بِالسَّلَاسِلِ:

{ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ }^٤.

اللهم إنا نعوذ بك من النار، وما قرب منها من قول وعمل.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٤

٢ - سُورَةُ الْحَجِّ: الْآيَةُ / ٢٠

٣ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ: الْآيَةُ / ١٥

٤ - سُورَةُ غَافِرٍ: الْآيَةُ / ٧١، ٧٢

تَدَبَّر - ٤٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }^١.

سمع بَعْضُهُمْ قول الله تعالى: { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ }^٢.

فَقَالَ: لَوْ سَمِعْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ خَفِيرِ الْحَارَةِ لَمْ أَمَّ.

فمالنا نسمع قوارع الآيات فلا نتأثر؟

أما نخشى أن يصدق علينا قوله تعالى: { وَنَحْوَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا }^٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٤

٢ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ: الْآيَةُ / ٣١

٣ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ / ٦٠

تَدَبَّر - ٤٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ١.

من أساليب القرآن الجمع بين الترغيب والترهيب، بين الإنذار والتبشير، بين الوعد والوعيد.

ترهيب يردع عن المخالفة، وترغيب يدفع إلى الطاعة.

وعيد يقض المضاجع، ويقلق النفوس، وَتَفْشَعِرُ مِنْهُ الْجُلُودُ، ووعد تهفو له النفوس، وَتَلِينُ الْقُلُوبُ، وتشتاق إليه الأرواح.

{اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} ٢.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٤، ٢٥

٢ - سُورَةُ الزُّمَرِ: الْآيَةُ / ٢٣

تَدَبَّرْ - ٤٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ١.

أرسل الملك العظيم سبحانه خيرَ رسليهِ، وأكرمَ أنبيائه إليك يبشرك، بكرامته تعالى لك، وإحسانه إليك، وإنعامه عليك، بجَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَحُورٍ عِينٍ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، وَأَنْتَ فِيهَا خَالِدٌ لَا تَزُولُ عَنْهَا وَلَا عَنْكَ تَزُولُ.

قال ابن القيم: (فتأمل جلاله المبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنت وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرّة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه). ٢.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥

٢ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢١٧)

تَدَبَّر - ٤٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.....} ١.

ذكر العمل الصالح بعد الإيمان دليل صدق الإيمان، وأنه ليس مجرد ادعاء.

فكم ممن يدعي الإيمان، وليس له من الإيمان إلا مجرد دعوى ليس له عليها برهان.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رحمه الله: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَبْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: {قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} ٢.

وَقَالَ أَيضًا: لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ. إِنَّ قَوْمًا أَهْتَهُمْ أَمَانِي

المغفرة حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ، وَقَالُوا: نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ، وَكَذَّبُوا لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ

بِهِ لِأَحْسَنُوا الْعَمَلِ.

اللهم استعملنا في طاعتك، ووقفنا لمرضاتك.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥

٢ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ٣١

تَدَبَّر - ٤٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ١.

مهما تخيلت الجنة فلن تتخيل ما فيها من النعيم.

لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هل تخيلت كيف تجري من تحتها الأنهار؟

هل تخيلت نهرًا يجري في غير أهدود؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَلَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ أَخْدُودٌ فِي الْأَرْضِ لَا وَاللَّهِ إِنَّهَا لَسَائِحَةٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَافَتَاهَا حَيَامُ اللَّؤْلُؤِ وَطِينُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْأَذْفَرُ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا خَلْطَ مَعَهُ» ٢.

علق قلبك بها، وحدث نفسك عنها، واعمل من أجلها، واسأل ربك أن يمن عليك بها.

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥

٢ - رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦ / ٢٠٥)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة - أنهار الجنة، حديث

رقم: ٦٩، وصححه الألباني

تَدَبَّر - ٥٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} ١.

مهما كان المرء في الدنيا غنياً، ومهما كان موسراً، يعتريه الملل، وتدركه السامة، ويصيبه الضجر، يملُّ من طعامه ولو كان أشهى طعام، ويملُّ من ثيابه ولو كانت أفخر ثياب، ويملُّ من سيارته ولو كانت فارهتاً، ويملُّ من وظيفته ولو كانت مرموقة، ولا ينتهي الملل عند حدٍ، حتى يملَّ من حياته.

ألم تسمع قول زهير بن أبي سلمى؟

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ **** ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالَكَ يَسَامُ

أما الجنة فعطاءً دائماً، ولذة لا تنقطع، ونعيمٌ متجددٌ، ومن نعيمها أصنافٌ من الطعام لا يحصيها العد ولا يأتي عليها الحصر.

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: يُؤْتَى أَحَدُهُمْ بِالصَّحْفَةِ مِنَ الشَّيْءِ، فَيَأْكُلُ مِنْهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِأُخْرَى فَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي أُوتِينَا بِهِ مِنْ قَبْلُ. فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كُلْ، فَالْلَوْنُ وَاحِدٌ، وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ.

هل أدركت لماذا {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} ٢؟

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥

٢ - سُورَةُ الْكَهْفِ: الْآيَةُ / ١٠٨

تَدَبَّر - ٥١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ }^١.

تأمل قوله تَعَالَى: { أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ }، مع ما ذكره اللَّهُ تَعَالَى من صِفَاتِهِنَّ الْجَمِيلَةَ لتعلمَ أَنَّهُنَّ طُهَّرْنَ مِنْ كُلِّ أَدَى كَانَ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا، الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَالْعَائِطِ وَالْبَوْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدَى، فَإِنْ لَفِظَ: { مُطَهَّرَةٌ } أبلغَ من طَاهِرَةٍ.

مُطَهَّرَاتُ الْأَعْيُنِ، عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ: { وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ }^٢.
مُطَهَّرَاتُ الْأَبْدَانِ، صَفَاؤُهُنَّ صَفَاءُ الدَّرِّ الَّذِي فِي الْأَصْدَافِ، الَّذِي لَمْ تَمَسَّهُ الْأَيْدِي: { كَأَمْثَالِ
اللُّؤْلُؤِ الْمَكُونِ }^٣.

مُطَهَّرَاتُ الْأَخْلَاقِ، خَيْرَاتُ الشَّمَائِلِ وَالصِّفَاتِ: { فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ }^٤.

مُطَهَّرَاتُ الْوُدَادِ، رَاضِيَاتٌ لَا يَسْخَطُنَ، مُجَبَّاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ وَمُحَبَّبَاتٌ لَهُمْ: { عُرْبًا أَثْرَابًا }^٥.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥

٢ - سُورَةُ الصَّافَاتِ: الْآيَةُ / ٤٨

٣ - سُورَةُ الْوَاقِعَةِ: الْآيَةُ / ٢٣

٤ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ: الْآيَةُ / ٧٠

٥ - سُورَةُ الْوَاقِعَةِ: الْآيَةُ / ٣٧

تَدَبَّر - ٥٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ١.

تأمل الحكمة في تذييل الآية بذكر الخلود في الجنة، لتعلم أن أعظم ما يُنغصُ على أهل النعيم نعيمهم ذكر الموت، فبذكره تتكدر الحياة.

كَمَا قَالَ الشاعِر:

أَشَدُّ الْعَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ **** تَحَقَّقَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْتَقَالَ

ومهما نال المرء من اللذات، ومهما تلذذ بالشهوات، يُعصُّها عليه ذكر الموت، فلا ينتفع منها بشيء.

ولأن بالموت تَنقَطُ اللذات في الدنيا.

فأتى ذكر الخلود احتِراسًا مِنْ تَوَهُمِ انقِطَاعِ اللذات في الجنة، كما تَنقَطُ اللذات في الدنيا.

تَدَبَّر - ٥٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} ١.

واجبك نحو مخلوقات الله تعالى أن تأخذ منها العبرة والعظة، لا أن تحتقرها، لا سيما إذا ذكر الله تعالى شيئاً منها في معرض العظة والاعتبار.

فقد نَطَقَتْ بالحكمة نملةً، وتسبب المدهد في اهتداء أمةٍ، وتعلمنا سنة الدفن من غرابٍ.

قال أبو العتاهية رحمه الله:

لا تحتقر شيئاً تصاغرت قدره **** فإن حقيراً قد يضُرُّ وينفَعُ

تدبر - ٥٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} ١.

للحق نورٌ يُستضاء به، وعليه معالمٌ يُهتدى بها، ومناراتٌ تدلُّ عليه، وأماراتٌ يُعرفُ بها، ومع ذلك لا يهتدي إليه من سلب نور البصيرة، وحرَمَ لذة الإيمان، ورضي بالكفر والضلال.

وكما أن الرؤية الحسية لا تكون إلا بنور يكشفُ المنظورَ إليه، وحاسة يبصر بها، كذلك لا يُهتدى إلى الحقِّ إلا بعلاماتٍ تدلُّ عليه، ونورٍ في البصيرة يرشدُ إليه.

لذلك قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} ٢.

وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} ٣.

فلا تتعجب من يرى آياتِ الله مبثوثةً في الكونِ ثمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَرَهَا، وَيَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَإِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ.

فسل الله تعالى دائماً أن يجلي لك الحق، وأن يرزقك اتباعه، وأن يجلي لك الباطل، وأن يرزقك اجتنابه.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٢٦

٢ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآيَةُ / ٩٦، ٩٧

٣ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الآيَةُ / ١١١

تدبّر - ٥٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} ١.

إذا لم تجد أثرًا لكلام الله تعالى، في قلبك، وإيمانك، وفهمك، وسلوكك، فراجع إيمانك.
فإن الذنوب والمعاصي تحول بين القلب والقرآن.

كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ٢.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَنَفِّعِينَ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} ٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٢٦

٢ - سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: الآيَةُ / ١٤

٣ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ: الآيَةُ / ١٦

تدبر - ٥٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} ١.

الهداية أَجَلٌ نَعِمَ اللهُ تعالى على العباد، ولم لا؟ وهي دليل محبة الله تعالى للعبد.

انظر إلى تلك الحشود الهائلة، والجموع الغفير، والأمم الكثيرة، إلى الملايين من البشر، بل المليارات، ممن ضلوا عن سبيل الله، وحادوا عن هدي أنبيائه ورسله، لتعلم مدى ما أنعم الله به عليك، لتستشعر لطف الله تعالى بك، وعطف الله تعالى عليك، ورفق الله تعالى بك، ورحمته إياك.

واحمد الله تعالى على نعمة الهداية للإسلام، وحمد الله تعالى على توفيقه لك فجعلك متبعًا للسنن، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ" ٢.

واعلم أن الأمر محض فضل الله، وأن ما أنت فيه من الإسلام والإيمان إنما هو من رحمة الله بك، وإياك أن تُدَلَّ بِإِيمَانٍ، أو أن تَمُنَّ بِطَاعَةٍ أو إِسْلَامٍ، {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ / ٢٦

٢ - رواه البخاري في الأدب المفرد- بابُ حُسْنِ الخُلُقِ، حديث رقم: ٢٧٥، ورواه الحاكم في المستدرک مرفوعًا- حديث

رقم: ٧٣٠١، بسند صحيح

٣ - سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: آيَةٌ / ١٧

تدبر - ٥٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ }^١.

اللَّهُ تَعَالَى: { يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ }^٢.

وهو سبحانه حكم عدل: { لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ }^٣.

فلا تتوهم أن الله تعالى يَظْلِمُ أحداً من خلقه، فيضله وقد أخلص له العبادة، ويعذبه وقد أحبه وسعى طول عمره لمرضاته، وأتبع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }^٤.

وَقَالَ تَعَالَى: { إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا }^٥.

أما هؤلاء الذين أَضَلَّهُمُ اللَّهُ فقد فَسَقُوا فَأَضَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَى فِسْقِهِمْ، وآثروا الكفر فأعمى الله بصائرهم.

كما قَالَ تَعَالَى: { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ }^٦.

فهذا أَضَلَّهُ اللَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَضَلَّهُ اللَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٦

٢ - سُورَةُ فَاطِرٍ: الْآيَةُ / ٨

٣ - سُورَةُ يُونُسَ: الْآيَةُ / ٤٤

٤ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الْآيَةُ / ١٢٠

٥ - سُورَةُ الْكَهْفِ: الْآيَةُ / ٣٠

٦ - سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: الْآيَةُ / ٢٣

تدبّر - ٥٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.^١

أعظم الخسران أن يخسر العبد ربه، فمن فاته الله فقد فاته كل شيء.

فإذا كان العبد لا يعرف مع مولاه إلا المخالفة، ينقض عهده، ويخالف أمره.

وهو مع ذلك لا يتورع عن قبيح، ولا يرعوي عن منكر، ولا يستحي عن فجور.

فأي حال أقبح من هذا؟

وأي خسران أعظم من هذا؟

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٧

تدبر - ٥٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ١.

عجيب شأن ابن آدم، كان عدماً فأوجده الله تعالى من العدم، وغذاه بصنوف النعم.

وسخر له الشمس والقمر دائبين، وسخر له الليل والنهار.

وسخر له الفلك تجري في البحر بأمره، وأجرى له الأنهار.

وسخر له النجوم ليهتدي بها في ظلمات البر والبحر.

وأنزل له الكتب تحي القلوب، وتنير الدروب.

وأرسل الرسل مبشرين برحمة الله وجنته، ومنذرين عذاب الله وسخطه.

ثم يزعم أنه خُلِقَ عبثاً، وترك هملاً.

تدبر - ٦٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}.^١

تأمل قول الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، لتعلم مدى نعمة الله تعالى على عباده، ومدى ظلم الإنسان لنفسه.

خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، ليعبدوه وحده، ليذكروه، ويشكروه، {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}.

فجحدوا حق الله تعالى عليهم، وعطلوا حركة الكون، لما زعموا أنهم خلَقوا عبثًا، وأوجدوا لغير حكمة.

وصدق الله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}.^٢

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٩

٢ - سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: الْآيَةُ / ٣٤

تدبّر - ٦١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }^١.

نعم هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، عليم بخلجات نفسك، عليم بأحزانك، وأفراحك، عليم بآلامك، وأسقامك.

فلا تحزن إن لم يشعر بك من حولك، وإن لم يهتم بك المقربون إليك؛ لأنه أقرب إليك منهم، وأرحم بك منهم، ألم تسمع قوله تعالى: { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }^٢.

فإن كان لك شكوى فله، وإن كانت عندك نجوى فإليه، أما البشر ف { إِنَّهُمْ لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا }، علق قلبك به، واجعل حياتك له، واسع في مرضاته، وإن أصابك هم، أو غم، أو حزن، فقل: { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ }.

وهل تعلم أحدًا يكشف الضّرّ سواه؟

وهل يجيب المضطرّ غيرُهُ؟

{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ }^٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٩

٢ - سُورَةُ ق: الْآيَةُ / ١٦

٣ - سُورَةُ النَّمْلِ: الْآيَةُ / ٦٢

تدبر - ٦٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ١.

علم الله تعالى أنه سيكون في الأرض من يفسد فيها، ويسفك الدماء، وأنه سيكون فيها مجرمون فجرة، وعلم أنه سيكون فيها مؤمنون صالحون، وأتقاء بررة، ولوجود هؤلاء الصالحين البررة، جعل في الأرض خلايف، يعمرن الأرض بعبادة الله، ويسمعون الكون ذكر الله، ويرفعون في الأرض كلمة الله.

فكن من هؤلاء الصالحين، الذين نوة الله تعالى بذكرهم في الملائكة الأعلى قبل إيجادهم، ورفع شأنهم أمام ملائكته، واتنى عليهم قبل أن يخلقهم.

تدبر - ٦٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } ١.

تشفق الملائكة من الإفساد في الأرض ومن سفك الدماء، وهم الذين { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ }، وبعض الناس لا يعرف إلا الإفساد، يسفك الدماء، ويزهق الأرواح، ليل نهار، ولا يظرف له جفن، ولا يحرك ساكنا، ماتت قلوبهم قبل الممات، وما بلِّح بِمَيِّتٍ إِيْلَامٌ.

كأنه وحش في غابة، أو كأنه آلة جامدة، جسد بلا قلب، وشبح بلا روح، وصدق الله: { وَلَقَدْ دَرَأْنَا لَجَنَّهُمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ٢.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ / ٣٠

٢ - سورة الأعراف: الآية / ١٧٩

تدبر - ٦٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ١.

كل علم فمصدره الله تعالى، وكل فضل فمرجعُه إلى الله تعالى، فلا تتكبر بعلمك على خلق الله، ولا تمنن بفضلك على أحدٍ أحسنت إليه، وتذكر أن الله أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً، وأعطاك من وسائل العلم ما يعينك على تحصيله، ومن أسباب المعرفة ما يقربك إلى ربك.

قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ٢.

فاحذر أن يكون علمك ومعرفتك سبباً في بعدك عن الله تعالى.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٣١

٢ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ / ٧٨

تدبر - ٦٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} ١.

تنزيه لله تعالى عن النقائص، واعتذار منهم عن مراجعتهم له بقولهم: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} ٢.

أين هذا الأدب ممن ينتسب للإسلام ثم يقابل أحكام الشرع بالطعن، والتنقص، ويصفها بالتخلف والرجعية؟

{قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ / ٣٢

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ / ٣٠

٣ - سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: آيَةٌ / ١٦

تدبر - ٦٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} ١.

الله عز وجل رفعك، وكرّمك، وفضّلك، لما أمر الملائكة أن تسجد لأبيك، فلا تضع من نفسك، واحفظ كرامة الله تعالى، وترفع عن المنكرات والسفاسف، واعلم أن رفعة الله تعالى لك ليست بحسبك ونسبك، وإنما بإيمانك به، وإذعانك له، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ٢.

وإكرام الله تعالى لك إنما هو بتقواك له؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} ٣.
وتفضيل الله تعالى لك إنما هو بأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وإيمانك بالله؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ٤.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٣٤

٢ - سُورَةُ الْمُحَادَلَةِ: الْآيَةُ / ١١

٣ - سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: الْآيَةُ / ١٣

٤ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ١١٠

تدبّر - ٦٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }^١.

عصى إبليس أمرًا واحدًا لله تعالى، فطرده من رحمته.

وحرمه جنته.

ولعنه.

وباء بسخطه.

فما يؤمنك أنت إن عصيت أمره؟

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٣٤

تدبر - ٦٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} ١.

الخير كل الخير فيما أحله الله تعالى، والشر كل الشر فيما حرمه الله تعالى.

ومن رحمة الله تعالى أن المحرم قليلٌ محدودٌ، والمباح كثيرٌ لا يُحَد.

فاستغن بما أغناك الله من الحلال، ولا تمدنَّ عينيك إلى ما حرمه الله.

ولا تقرب منه، فَإِنَّ أَبْوِيكَ أُخْرِجَا مِنَ الْجَنَّةِ، بِذَنْبٍ وَاحِدٍ.

يَا نَاضِرًا يَزُنُو بَعِيْنِي رَاقِدٍ **** وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ

تَصِلُ الدُّنُوبَ إِلَى الدُّنُوبِ وَتَرْتَجِي **** دَرَجَ الْجِنَانِ وَتَيْلَ فَوْزِ الْعَابِدِ

أَنْسَيْتَ رَبَّكَ حِينَ أَخْرَجَ آدَمًا **** مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

تدبر - ٦٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا }^١.

هي حَسْرَةُ اللهِ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ مَا زَالُوا يَتَجَرَّعُونَ غَصَصَهَا عَلَى مَا أَصَابَ آدَمَ مِنْ جَرَاءِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاها اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، حَسْرَةُ تَدْفَعُ بِصَاحِبِهَا لِلْعَمَلِ لِلْعُودَةِ إِلَى الْمَنَازِلِ الْأُولَى، وَالْمَوْطِنِ الَّذِي فَقَدْنَاهُ.

والله لو أن القلوب سليمة ***** لتقطعت أسفاً من الحرمان

لكنها سكرى بحب حياتها الد ***** نيا وسوف تفيق بعد زمان

فهل ترضى بالدنيا الدنيئة، التي لَيْسَتْ لَنَا بِدَارِ مَقَامٍ، فتجعلها كل همك ومبلغ علمك، وتسعى جهدك في تحصيل لذاتها، وأنت فيها غريبٌ أو عابِرٌ سَبِيلٍ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِيهَا غُرَبَاءُ.

قَالَ فَتَحُ الْمَوْصِلِيُّ: كُنَّا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَسَبَّانَا إِبْلِيسُ إِلَى الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُخْرِجْنَا مِنْهَا.

ألم يهزك الشوق لدار البقاء؟

ألم يخذ بك الأمل ليوم اللقاء؟

فَحَيَّ عَلَى جَنَاتٍ عَدَنِ فَإِنَّهَا ***** مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيِّمُ

وَلَكِنَّا سَبِيُّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ***** نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ؟

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٣٦

تدبر - ٧٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } ١.

تذكيرٌ بِالْعَدَاوَةِ الأبدية بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالشَّيْطَانِ، فاحذر أن تغفل عنه فإنه ليس بغافل عنك.

قيل: للإمام أحمد أبنام الشيطان؟

قال: لو نام لاسترحنا.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ بَعْدَاوَةَ الشَّيْطَانِ مَرَارًا قَالَ تَعَالَى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ

أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ } ٢.

وَقَالَ تَعَالَى: { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ

اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } ٣.

وَقَالَ تَعَالَى: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } ٤.

وما زال مِنْ بَنِي آدَمَ مَنْ يُوَالِيهِ، وَيَطِيعُهُ، وَيَغْفُلُ عَنْ عَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ ذُرِّيَّتِهِ لَهُ: { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } ٥.

١ - سُورَةُ البَقَرَةِ: الآيَةُ / ٣٦

٢ - سُورَةُ الأَعْرَافِ: الآيَةُ / ٢٧

٣ - سُورَةُ يَس: الآيَةُ / ٦٠، ٦١

٤ - سُورَةُ فَاطِرٍ: الآيَةُ / ٦

٥ - سُورَةُ الكَهْفِ: الآيَةُ / ٥٠

تدبر - ٧١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} ١.

عَرَفَ الشَّيْطَانُ مَهْمَتَهُ مِنْ أَوَّلِ لِحْظَةٍ هَبَطَ فِيهَا، فَصَفَ جَنُودَهُ، وَصَوَّبَ رِمَاحَهُ وَسَهَامَهُ، وَسَلَّ سَيْفَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} ٢.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْرَلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً» ٣.

وَجَدَّتْ الْحَرْبُ بِالنَّاسِ، وَشَدَّتْ عَلَيْهِمْ أَيُّ شَدٍّ، وَحَمَى الْوَطِيسُ، وَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ النَّاسِ قَتِيلٌ، وَصَرِيْعٌ، وَأَسِيرٌ.

وما زال كثيرٌ من الناس يرتع في ملذاته، غارقاً في شهواته، سادراً في عيئه، لا يدري أن سهام المنون، فوّقت إليه،

وأن رياح الموت هبت عليه.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٣٦

٢ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ / ٦٤

٣ - رواه مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً،

حديث رقم: ٢٨١٣

تدبّر - ٧٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} ١.

مهما كان غناؤك في الدنيا، ومهما كان هناؤك فيها، يكدره أنها إلى حين، وينغصه أنها متاع.

ظِلٌّ زَائِلٌ.

وَعَرَضٌ قَلِيلٌ.

وَسَرَابٌ خَادِعٌ.

وَحَصَادٌ الْهَشِيمُ.

تدبر - ٧٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ١.

هي رحمة الله التي وسعت كل شيء، وعمت كل الخلق.

وانظر إلى سعة رحمته تعالى بعباده، يذنب العبد فيدعوه ربه للتوبة، ويلقنه ما يتوب به عليه، ويوفقه للتوبة، ويتوب عليه؛ كما قال الله تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ٢.

ولعل النكتة في حذف الاختصار في الآية وتقديره: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَدَعَا بِهَا فَتَابَ عَلَيْهِ)، لعل النكتة في ذلك، حب الله تعالى للتوبة، وسعة عفوه، وقرب رحمته من عباده.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٣٧

٢ - سورة التوبة: الآية/ ١١٨

تدبر - ٧٤

قَالَ تَعَالَى: {فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَحْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ١.

هذه بركة القرآن في الدنيا والآخرة.

أَمَانٌ لِمَصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، وَأَمَانٌ لَهُ مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَلَّا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ ٢.

فهل رأيت أعظم بركة من كلام الله تعالى؟

١ - سورة البقرة: الآية / ٣٨

٢ - تفسير القرطبي (١١ / ٢٥٨)

تدبر - ٧٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ١.

احذر أن تزيغ بك الأهواء، أو تضلّ في دُروبِ الفتن.

واتزم هدى الله دائماً، فَإِنَّ النَّجَاةَ كُلَّ النَّجَاةِ فِي اتِّبَاعِ هُدَى اللَّهِ، {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} ٢.

واحذر أن تخالف نصّاً من نصوص الوحي، أو ترد حكماً لله تعالى، فإن الله تعالى جعل المقابل
لاتباع هداه، الكفر والتكذيب لآيات الله تعالى.

فإذا رأيت من يعارض هدى الله، الذي أنزله في كتابه أو على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، أو يدعو إلى غيره، فاعلم أنّ له نصيباً من قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٣٨، ٣٩

٢ - سورة الزمّر: الآية/ ٢٣

تَدَبَّر - ٧٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} ١.

كل نِعْمَةٍ أَنْتَ فِيهَا فَاللَّهُ مَصْدَرُهَا وَهُوَ مُبْتَدِئُهَا، هِيَ نِعْمَتُهُ تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْكَ وَعَلَى سَائِرِ عِبَادِهِ، وَتَطَوَّلَ بِهَا عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ.

فَمَا أَنْتَ فِيهِ وَمَا فِيهِ الْخَلْقُ جَمِيعًا مِنْ عَظِيمِ نِعْمِهِ، وَتَوَالِي مَنَنِهِ، وَدَوَامِ إِحْسَانِهِ، لَنْ تَطِيقَ وَلَنْ يُطِيقُوا الْفِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَأَسْبَعَ عَلَيْكَ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}.

والواجب علينا أن نقابل نِعْمَ اللَّهِ بِشُكْرِهِ عَلَيْهَا، وَمِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ التَّحَدُّثُ بِهَا، قَالَ تَعَالَى:

{اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، وَقَالَ تَعَالَى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} ٢.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» ٣.

فِيَارِبَّ عَفْوِكَ كَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيْنَا فَلَّ لَكَ عِنْدَهَا شُكْرُنَا.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٤٠

٢ - سُورَةُ الصُّحَى: الْآيَةُ / ١١

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٣٧٥، والترمذي - أَبْوَابُ الْأَدَبِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ إِنْ
اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ، حديث رقم: ٢٨١٩، بسند صحيح

تَدَبَّر - ٧٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}.^١

إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله، فانظر ما لله عندك.

فإن الجزاء من جنس العمل.

هل تسارع في مرضاته؟

هل تحاذر أسباب سخطه؟

هل تخشاه حق خشيته؟

هل ملأ حُبُّه قلبك؟

هل تتبع رسوله؟

اسمع إلى سبب استحابة الله تعالى لذكريا عليه السلام.

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.^٢

فاستجب له إذا دعاك، يستجب لك إذا دعوته.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٤٠

٢ - سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: الْآيَةُ / ٩٠

تَدَبَّر - ٧٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنِّي فَازَهُبُونَ} ١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنِّي فَازَهُبُونَ}، أمرٌ بدوام الخشية منه سبحانه وتعالى، ونهيٌ عن الخوف مما سواه، فإن تقدم الضمير المنفصل: (إِنِّي) على الفعل يفيد الاختصاص.

والعلة في ذلك أن الذي يملك الآجال هو الله، والذي يُقَسِّمُ الأرزاق هو الله تعالى.

فَلِمَ الرهبةُ من غيره؟

وَلِمَ الخشية من سواه؟

إذا كان غيره لا يملك موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً.

وإذا كان غيره فقيراً لا يملك رزقاً، ضعيفاً لا يدفع ضرراً.

ألم تسمع قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} ٢؟

١ - سُورَةُ البَقَرَةِ: الآية/ ٤٠

٢ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآية/ ١٠٧

تَدَبَّر - ٧٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ١.

إثارة الشبهات عن الإسلام، وتشويه صورته، والسعي لطمس معالمه.

وكتمان الحق، والحيلولة دون بلوغه الناس.

وسيلتان من وسائل اليهود في كيدهم للإسلام.

فإذا وجدت من يفعل ذلك، إذا وجدت من يثير الشبهات للعوام، وينثر بذور الشك في

القلوب، ويسعى لتشويه جمال الدين، ويكتم الحق المبين، ويجحد نوره الساطع.

فاعلم أن فيه شبهًا من اليهود، وإن صلى صام وزعم أنه مسلم.

تَدَبَّر - ٨٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ }^١.

احرص على أن تكون في زمرة المؤمنين، وأن تلزم جماعتهم حتى في عبادتك، فإن ضلال من ضلَّ، وهلاك من هلك، إنما كان بسبب نأيه عن جماعة المؤمنين.

ألم تسمع قولَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ»^٢.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَدُّ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدَّ إِلَى النَّارِ»^٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ/ ٤٣

٢ - رواه أبو داود- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ فِي التَّشْدِيدِ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٥٤٧، وَالنَّسَائِيُّ - كِتَابُ الْإِمَامَةِ،

التَّشْدِيدُ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٨٤٧، بِسَنَدٍ حَسَنٍ

٣ - رواه الترمذي- أَبْوَابُ الْفَقَنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي لُزُومِ الْجَمَاعَةِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢١٦٧

تَدَبَّر - ٨١

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ١.

إذا أمرت غيرك بالمعروف فكن أول الممثلين له، وإذا نهيت غيرك عن منكر فكن أول المنتهين عنه.

استجابة لأمر الله تعالى.

وحذرًا من سخطه، أن يراك مستهينًا بأمره؛ { لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } ٢.

وليكون لكلامك بركةً ووقعًا في النفوس.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٤٤

٢ - سُورَةُ الصَّفِّ: الْآيَةُ / ٢، ٣

تَدَبَّر - ٨٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} ١.

العلة التي من أجلها جمع الله تعالى بين الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، أن الصَّبْرَ حبسُ النفسِ عَنِ الذنوبِ
وَالْمَعَاصِي، وَمَنْ حَقَّقَ الصَّبْرَ، كَانَ مُجْتَنِبًا لِكُلِّ شَرٍّ.

وَالصَّلَاةُ رَأْسُ الْعِبَادَاتِ، وَعَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَرُكْنُهُ الرُّكُوزُ، بَلْ أَعْظَمُ أَرْكَانِهِ الْعَمَلِيَّةِ، وَمَنْ حَافِظًا
عَلَيْهَا كَانَ مُحَافِظًا عَلَى مَا سِوَاهَا، وَمَنْ ضَيَّعَهَا كَانَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعًا.

فاجتمع بالصبر والصلاة اجتناب كل شر، وامتنال كل أمر.

تَدَبَّر - ٨٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ١.

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مُلَاقٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ، عَلِمَ أَنَّهُ سَوْفَ يُسْأَلُ لَا مَحَالَةَ، يُسْأَلُ عَنِ عُمْرِهِ فِيْمَ أَفْنَاهُ، وَعَنِ شَبَابِهِ فِيْمَ أَبْلَاهُ، وَعَنِ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنِ عِلْمِهِ مَاذَا عَمَلَ فِيهِ.

يَأْتِي وَقَدْ دَوَّنَتْ عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ، وَأَحْصَيْتْ عَلَيْهِ آثَامَهُ، وَسَجَلَتْ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ؛ {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ٢.

لَا بِجَمَالٍ لِإِنكَارٍ، وَلَا سَبِيلَ لِمَرَاوَعَةٍ؛ {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ٣.

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمْ مِنْ مُسْتَوِرٍ فِي الدُّنْيَا مَفْضُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَكَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَهَبْ أَنْكَ نَجْوَتَ بِإِحْسَانِهِ، وَعَفَا عَنْكَ بِغَفْرَانِهِ.

بِأَيِّ وَجْهِ تَلْقَاهُ؟ وَبِأَيِّ عَيْنٍ تَنْظُرُ إِلَيْهِ؟ وَقَدْ جَعَلْتَهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ.

هَبِ الْبَعَثَ لَمْ تَأْتِنَا رِسَالُهُ ***** وَجَاحِمَةُ الْجَحِيمِ لَمْ تُضْرَمِ

أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقُّ ***** حِيَاءُ الْعِبَادِ مِنَ الْمَرْغَمِ

فَاحْذَرِ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ {يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ} ١.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٤٦

٢ - سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: الْآيَةُ / ٢٩

٣ - سُورَةُ فَصَّلَتْ: الْآيَةُ / ٢٠

تَدَبَّر - ٨٤

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} ٢.

ستقف يومًا بين يدي ربك وحيدًا، وستأتي يوم القيامة منقطعًا فريدًا.

يومئذ لا ينفعك ولد ولا والد.

ولا ينجيك مالٌ ولا جاه.

ولا يغني عنك نسبٌ شريفٌ أو حسبٌ كريمٌ.

تَنْظُرُ أَيَّمَنَ مِنْكَ، فَلَا تَرَى إِلَّا مَا قَدَّمْتَ، وَتَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْكَ، فَلَا تَرَى إِلَّا مَا قَدَّمْتَ، وَتَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْكَ فَلَا تَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِكَ.

قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} ٣.

يفر عنك من كان يتقرب إليك، وينفر منك من كان يرجو رضاك.

ولا ترى لك وسيلة تنجيك، ولا سببًا تتعلق به إلا رحمة الله، ثم ما كنت تقدمه لله من عمل.

قَالَ تَعَالَى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} ٤.

فلا ينفعكم غيره، ولا يغني عنكم سواه.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٠٨

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٤٨

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ٩٤

٤ - سورة الذَّارِيَاتِ: الآية/ ٥٠

تَدَبَّر - ٨٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}. ١

من أعظم البلاء، ومن أبلغ الضرر أن ترى أهلك يتألمون ويحزنون ولا تملك لهم نفعًا ولا تستطيع أن تكشف عنهم ضرًا، من مثل هذا يذوب القلب من كمدٍ، ويتقطع القلب من غمٍ، وتذهب النفس حسرات.

سمى الله تعالى ذلك عذابًا، {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}.

أرأيت من يموت ابنه بين يديه جوعًا؟

أرأيت من يرتجف بين يدي أمه بردًا حتى يموت متجمدًا؟

أرأيت من يلفظ أنفاسه بين يدي أبويه لأنهم لم يجدوا له دواءً؟

هل تخيلت حسرتهم؟

هل تصورت حزنهم؟

أعظم من ذلك حسرةً، وأشد منه ألمًا أن يرى العبد ابنه في النار يعذب، ولا يملك له نفعًا ولا ضرًا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ...}. ٢

ووقايتك إياهم النار تكون بأمرين:

تكون بصلاحك في نفسك..... وحملهم على ما يرضي الله تعالى.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ٤٩

٢ - سُورَةُ التَّحْرِيمِ: الْآيَةُ/ ٦

تَدَبَّر - ٨٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١.

إذا أذنبت ذنبًا فلم تجد له أثرًا في الحال، فأحدث له توبةً، وأظهر له ندمًا.

واشكر الله تعالى على ستره لك، فلعله عفا عنك، وعفر لك.

لعله تجاوز عن اساءتك، فلم يفضحك.

وهذه نعمة تستوجب الشكر.

تدبر - ٨٧

قال الله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} ١.

الهدى مصدره كتاب الله تعالى، وليس لأحد سبيل إلى الهدى في غير كتاب الله تعالى، {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً} ٢.

وقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ٣.

فالقرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، هو طوق النجاة والسلامة من المهالك، وهو منهج الاستقامة الذي يوضح أبين المسالك، والذي ينفي عن العباد الضلالة، ويُرشدُهم إلى أقوم حالة.

وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو المخرج من كل فتنة، والنجاة من كل محنة، والدواء من كل داء، والعافية من كل بلاء.

وهو كذلك صراط الله المستقيم المُفضي إلى روضات الجنات.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٥٣

٢ - سورة فصلت: الآية/ ٤٤

٣ - سورة المائدة: الآية/ ١٥، ١٦

تدبر - ٨٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ} ١.

الخير ليس فيما تراه أنت بل فيما يراه ربك، فسلم له أمره واطرح نفسك بين يديه، وتبرأ من حولك وقوتك إلى حوله وقوته، فكم من حادثة لا يُرى فيها للخير أثر، فإذا بها خيرٌ ليس للشر فيه أثر، وكم من محنة نراها قاصمة الظهر، فإذا بها منحة رافعة للقدر، {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} ٢.

لو فكرت فيما قدره، مما قدمه لك أو أخره، واستشعرت لطفه وإحسانه، وبره بمن أطاعه ورضوانه، لعلمت أنه يريد لك الخير، ويدفع عنك الضر، {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} ٣.

نعم كن على يقين من ذلك، وكن أوثق بوعد الله مما تراه بعينك، ومما تسمعه بأذنك، ومما تمسه بيده، فإذا ساورتك الشكوك، وراودتك الأوهام، وحامت حولك الظنون، فقل لها: أنا ظني بربي جميل، أنا ظني بربي جميل.

قَالَ تَعَالَى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ٤.

وَقَالَ تَعَالَى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} ٥.

١ - سورة البقرة: الآية / ٥٤

٢ - سورة النور: الآية / ١١

٣ - سورة البقرة: الآية / ٥٤

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢١٦

٥ - سورة النساء: الآية / ١٩

تدبر - ٨٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }^١.

كل مخالفة يقع فيها العبد، وكل انحراف منه عن منهج الله تعالى فإنما ضرر ذلك على ذلك عليه هو.

وكل إنسان له من الشقاء وذنك العيش والبؤس بقدر انحرافه عن منهج الله، وبقدر مخالفته لأمر الله تعالى.

أما الله تعالى فلا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العصاة المخالفين.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }^٢.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي»^٣.

فأرفق بنفسك فإن سهام معصيتك مُفَوِّقَةٌ إِلَيْكَ، ومُصَوَّبَةٌ نَحْوَكَ، ومُرْسَلَةٌ عَلَيْكَ.

١ - سورة البقرة: الآية / ٥٧

٢ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٧

٣ - رواه مسلم - كتاب البرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ تَحْوِيمِ الظُّلْمِ، حديث رقم: ٢٥٧٧

تدبر - ٩٠

قَالَ اللهُ تَعَالَى: { وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ }^١.

من سعة رحمة الله تعالى، وعظيم مغفرته أنه يعلق المغفرة أحياناً على كلمة يقولها العبد.

كما في هذه الآية { وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ }.

وكما قَالَ المعصوم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ،

حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ"^٢.

وكما قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ،

وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الرَّحْفِ"^٣.

ولكن بعض الناس يضيق صدره بتلك الكلمة، وتنبؤ هذه الكلمة بلسانه، فلا يستطيع نطقها.

وهنا ندرك لِمَ أَمَرَ العبدُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَعِينَهُ عَلَى ذِكْرِهِ.

١ - سورة البقرة: الآية / ٥٨

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ فَضْلِ التَّسْبِيحِ، حَدِيثُ رَقْم: ٦٤٠٥، وَمُسْلِم- كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ فَضْلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالِدُّعَاءِ، حَدِيثُ رَقْم: ٢٦٩١

٣ - رواه أبو داود- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الْوُتْرِ، بَابُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ، حَدِيثُ رَقْم: ١٥١٧، وَالتِّرْمِذِي- أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ فِي دُعَاءِ الصَّيْفِ، حَدِيثُ رَقْم: ٣٥٧٧، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ

تدبر - ٩١

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} ١.

الإحسان هو ذروة كل شيء، فالإحسان هو ذروة الدين، وذروة الأخلاق، وذروة البذل والعطاء.

ولما كان المحسن زائداً عن حد الفرض، متطوعاً بأكثر مما أمر به كان المزيد من الفضل جزاؤه.

فَكَمَا أَحْسَنُوا الاعتقادَ، والأخلاقَ، والعَمَلَ فِي الدُّنْيَا، أَحْسَنَ اللهُ مَا لَهُمْ، وَتَوَابَهُمْ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ولما كان الجزاء من جنس العمل، كان جزاء الْمُحْسِنِينَ إحساناً.

كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} ٢.

بل وأكثر من الإحسان، النظر إلى وجهِ اللهِ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} ٣.

١ - سورة البقرة: الآية / ٥٨

٢ - سورة الرَّحْمَنِ: الآية / ٦٠

٣ - سورة يُوسُفَ: الآية / ٢٦

تَدْبِير - ٩٢

قَالَ تَعَالَى: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} ١.

بعض الناس يميل إلى السفاسف، وتستمرئ نفسه الدنيء، وتستعذب المر، وتستحسن القبيح، ولا تستسيغ العذب الزلال، ولا تستطعم الهنيء المريء، ولا تستشعر الجمال.

وصدق القائل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُّرٍّ مَرِيضٍ **** يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَ

لا شك أنه مرضٌ.... نعم مرضُ الخسة والدناءة.

والعجيبُ أن مَنْ يُصَابُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَرَضِ لَا يَشْعُرُ بِهِ وَلَا يَشْفَى مِنْهُ، يُدَكِّرُ فَلَا يَتَذَكَّرُ، وَيُوعِظُ فَلَا يَتَعِظُ، وَيُخَوِّفُ فَلَا يَرْعَوِي.

كان هذا حال بني إسرائيل تميل نفوسهم إلى الدنيا، وتشمئز من المعالي، فإياك أن تكون منهم، واحذر أن تسلك سبيلهم.

بقي أن نعرف أن الخير كل الخير في امتثال أمر الله تعالى واجتناب أسباب سخطه.

وأن الدناءة كل الدناءة في تعدي حدوده وانتهاك حرمانه.

اللهم إنا نعوذ بك من مضلات الفتن.

تَدْبِير - ٩٣

قَالَ تَعَالَى: { وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } ١.

سنه الله في خلقه أن من عصاه، وتعدى حدوده، وانتَهك حُرْمَاتِهِ أذله الله في الدنيا قبل الآخرة.
وقد جعل الله سبحانه العزَّ قرين طاعته، والدُّلَّ قرين معصيته، وبقدر معصية العبد يكون دُله،
ومهانته، وسقوطه من عين الله تبارك وتعالى.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَطَتْ بِهِمُ الْبِعَالُ، وَهَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبِرَازِينُ، إِنَّ دُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا
يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُدِلَّ مَنْ عَصَاهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:

رَأَيْتُ الدُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ **** وَقَدْ يُورِثُ الدُّلَّ إِدْمَانَهَا

وَتَرَكْتُ الدُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ **** وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانَهَا

تَدْبِير - ٩٤

قَالَ تَعَالَى: { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ١.

لا يصلح لحملِ أمانةِ آبَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا إِلَّا أُولُوا الْعِزَائِمِ
الماضية، والهممِ العالية، والبصائرِ الثاقبة.

لأنها ثقيلة الحمل، عظيمة الخطر، جليلة الخطب.

ولما كانت كذلك كانت هي الجمد المؤثر في الدنيا والآخرة، ولتحقيق هذا الجمد لا بد من جد، ولا بد من صبر.

لا تحسب الجمد تمراً أنت آكله ***** لن يبلغ الجمد من لم يلحق الصبرا

ولا يتأتى لأحدٍ القيامُ بها إلا بعلمٍ يولدُ التقوى، ويورثُ الخشية، والعلمُ لا يُنالُ براحةِ الجسدِ.

ومن صبر على لأوائها، وتحمل شدتها، وتدرع بالحزم، وأتزر بالجد، وتحلى بالورع، يوشك أن يجني ثمارها اليانعة، ويتفيم ظلالها الوارفة، ويقيل في روضاتها، في جنات النعيم.

تدبر - ٩٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا} ١.

سوء الظن مرضٌ يجري ممن ابْتُئِيَ به جرحى الدم من العروق، ويستشري في أوصاله، حتى يجعل صاحبه يصف اتقى الناس بالفجور، وأعدل الناس بالجور، ويصف أكثر الناس جدية، بالاستهزاء والسخرية، اساءوا الظن بنبيهم فقالوا له {أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا}، وما بدرت منه يوماً من الأيام سقطه، ولا وقفوا منه يوماً على زلة، ومثل هؤلاء في سوء ظنهم ذو الخويصرة الذي قال لأتقى الناس لله، وأعلم الناس بالله، وأبعد الناس عن الظلم، (اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ)، ولا ينتهي سوء الظن بصاحبه حتى يرد به موارد الهلاك، لأنه يحمل على أن يسيء الظن بربه عياداً بالله. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَدَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ٢.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ» ٣.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ٤.

اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ.

١ - سُورَةُ البَقَرَةِ: الآيَةُ / ٦٧

٢ - سُورَةُ فَصَّلَتْ: الآيَةُ / ٢٣

٣ - رَوَاهُ البُخَارِيُّ - كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا} [الحجرات: ١٢]، حديث رقم: ٦٠٦٦، ومُسْلِمٌ - كِتَابُ الزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظَّنِّ، وَالتَّجَسُّسِ، وَالتَّنَافُسِ، وَالتَّنَاجُشِ وَنَحْوِهَا، حديث رقم: ٢٥٦٣

٤ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ - كِتَابُ الجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ الأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ المَوْتِ، حديث رقم: ٢٨٧٧

تدبر - ٩٦

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} ١.

الجهل أقبح الصفات التي يمكن أن يوصف بها إنسان، لذلك استعاذ نبي الله موسى عليه السلام بالله من أن يتصف بشيء من الجهل، أو يوصم به.

ووعظ الله أنبيائه عليهم السلام مَوْعِظَةً يَرْفَعُهُمْ بِهَا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وينزههم أن يكون فيهم شيء من الجهل، قَالَ تَعَالَى لنوح عليه السلام: {فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} ٢.

وَقَالَ تَعَالَى لِنبيه محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} ٣.

ومن قُبْحِ الجهل أنه سبب كلِّ بلاءٍ وشرٍّ، وسبب كلِّ معصيةٍ وإثمٍ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ}، وبالجهل أُلْقِيَ يُوْسُفُ عليه السلام فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وتعرض لصنوف المحن، قَالَ تَعَالَى: {هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} ٤.

والجهل رجسٌ ينبغي البعد عنه، قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ٥.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٦٧

٢ - سُورَةُ هُودٍ: الآيَةُ / ٤٦

٣ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الآيَةُ / ٣٥

٤ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآيَةُ / ٨٩

٥ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ: الآيَةُ / ٦٣

والجهل دنسٌ ينبغي الإعراض عمن يتصف به، وَقَالَ تَعَالَى: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْجَاهِلِينَ }^١.

وَقَالَ تَعَالَى: { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا
نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ }^٢.

فإياك والجهل، فاحذر أن تكون من الجاهلين، واربأ بنفسك أن تكون مع الجاهلين، وارغب إلى
ربك أن ينزهك عن الجاهلين.

وليس الجهل أنك لا تحفظ كثيرا، ولكن الجهل أنك لا تعرف قدر ربك.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرَّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْحَشِيَّةُ^٣.

وَقَالَ أَيْضًا: كَفَى بِحَشِيَّةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا^٤.

اللهم إنا نعوذ بك أن نكون من الجاهلين.

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٩٩

٢ - سورة القصص: الآية/ ٥٥

٣ - رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الرَّؤُودِ - حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٨٦٧، وَرَوَاهُ ابْنُ عَبْدِ بَرٍ فِي جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ - بَابُ مَعْرِفَةِ أَصُولِ الْعِلْمِ
وَحَقِيقَتِهِ وَمَا الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْفَقْهِ وَالْعِلْمِ مُطْلَقًا، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ١٤٠١

٤ - رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الرَّؤُودِ - حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٨٦٤، وَرَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ فِي الرَّؤُودِ - بَابُ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِعَرَضٍ فِي الدُّنْيَا،
حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٤٦

تدبر - ٩٧

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حكاية عن بني إسرائيل: {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} ١.

لا يخرج شيء مما يجري في الكون عن مشيئة الله تعالى، ولا يكون إلا ما يريد، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فأسلم له زمامك، وأسلم له أمرك، فالكون كونه وأنت عبده، واطرح نفسك بين يديه، وقل اللهم دبر لي فيني لا أحسن التدبير، ومن طاعتك له أنك إذا عَزَمْتَ عَلَى شَيْءٍ تَرِيدُ فَعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَنْ تَرُدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَامِ الْعُيُوبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ.....} ٢.

وفي قولك: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) نجاح قصدك، وبلوغ مرادك، وتحقيق هدفك، بعد أخذك بالأسباب، فَلَوْلَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) لَمَا اهْتَدَوْا إِلَى الْبَقْرَةِ أَبَدًا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً نِصْفَ إِنْسَانٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَخْنَثْ، وَكَانَ دَرْكًا لِحَاجَتِهِ» ٣.

وفي قولك: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، تحقيق للعبودية، وكمال للتوكل، وحسن أدب مع الله تعالى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} ٤.

قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اسْتَشَى اللَّهُ فِيمَا يَعْلَمُ لَيْسَتْ شَيْءٍ الْخَلْقُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ، لِيَعْلَمَنَا الْإِسْتِثْنَاءَ.

١ - سُورَةُ الْبَقْرَةِ: الْآيَةُ / ٧٠

٢ - سُورَةُ الْكَهْفِ: الْآيَةُ / ٢٣، ٢٤

٣ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنْ طَلَبَ الْوَلَدَ لِلْجِهَادِ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ٢٨١٩، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْإِيمَانِ،

بَابُ الْإِسْتِثْنَاءِ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ١٦٥٤

٤ - سُورَةُ الْفَتْحِ: الْآيَةُ / ٢٧

تدبر - ٩٨

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ }^١.

احذر أن تكون من المصلين الذين يقال عنهم صلوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ، أو المتصدقين الذين يقال عنهم تصدقوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ، أو يقال عنك حج وما كاد يفعل، احذر أن تكون في مؤخرة ركب السائرين إلى الله، فإن التأخر في الطاعة معصية، والتأخر في الاستجابة نوع من أنواع الإعراض.

فَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ حَتَّى يُؤَخَّرَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»^٢.

والتأخر عن الطاعة من أسباب كره الله تعالى لتلك الطاعة التي يفعلها صاحبها بالكاد، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاتَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ }^٣.

والتأخر عن الطاعة من علامات النفاق؛ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَقَرَّهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»^٤.
ليكن لسان حالك: { وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى }^٥.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٧١

٢ - رواه أبو داود - كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ صَفِّ النِّسَاءِ وَكَرَاهِيَةِ التَّأَخُّرِ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، حديث رقم: ٦٧٩، بسند صحيح

٣ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الآيَةُ / ٤٦

٤ - رواه مسلم - كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ التَّبَكُّيرِ بِالْعَصْرِ، حديث رقم: ٦٤٤

٥ - سُورَةُ طه: الآيَةُ / ٨٤

تدبر - ٩٩

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ١.

ما أكثر آيات الله المبتوثة في الكون، وما أكثر أولئك الذين يمرون على آيات الله، ويرونها ليل نهار في السموات والأرض ثم يعرضون عنها، كأن لم يروها، {وَكَايُنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} ٢.

ومن كان كذلك لا ينتفع بآيات الله الكونية، ولا تستوقفه تلك الآيات للنظر والتأمل، ثم الاتعاظ والعبرة، ثم الإيمان بالخالق العظيم.

مثل هذا لا عقل له، بل البهائم العجماوات أحسن منه حالاً، وأهدى منه سبيلاً.

{لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ} ٣.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ٧٣

٢ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآيَةُ / ١٠٥

٣ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الآيَةُ / ١٧٩

تدبر - ١٠٠

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} ١.

صدق الله ومن أصدق من الله قيلا، بعض البشر قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، وأكثر جمودًا من الصخر، يرى ما يذيب الصخر، ويفتت الكبد، فلا يتأثر، ولا يحرك ساكنًا.

لسان حاله:

يُبَكِّي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ ***** لَنَحْنُ أَغْلَطُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبْلِ

أليس هؤلاء الذين حاصروا المستضعفين من النساء والأطفال، حتى اضطروهم لأكل الحشائش، والقطط، والكلاب، أليست قلوبهم أشد من الحجارة قسوة، وأعظم من الصخر جمودًا.

أليس هؤلاء الذين يقطعون أذان المستضعفين، ويجدعون أنوفهم، ويجرقونهم أحياء، ويمثلون بجثثهم، أغلط أكبادًا من الإبل؟

استغفر الله فليس عند الإبل من الحقد عشر معشار ما عندهم.

وما قسوة اليهود الذين قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة بجانب قسوة الجوس؟

فقد رأينا منهم من الفظائع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وتلك (مضايا) عُيُونٌ تَدْرِفُ، وَجِرَاحٌ تَنْزِفُ.

اللهم فرج كرب المكروبين، واكشف هم المهمومين، وانصر المستضعفين من المسلمين.

المحتويات

٣	مقدمة
٧	معنى تدبر القرآن
٩	فوائد تدبر القرآن
١٥	القواعد المُنلى لتدبر القرآن
١٥	القاعدة الأولى
١٥	(أنت المخاطب بالقرآن)
١٧	القاعدة الثانية
١٧	(تحل بالفضائل وتحل عن الرذائل)
١٩	القاعدة الثالثة
١٩	(احذر شوم المعصية)
٢١	القاعدة الرابعة
٢١	(رعاية الوقف والابتداء من أسباب التدبر)
٢٧	القاعدة الخامسة
٢٧	(ليس في القرآن ترادف)
٢٩	أمثلة لما يظن أنه من المترادف وليس كذلك
٣٦	القاعدة السادسة
٣٦	(التأسيس أولى من التأكيد)

- ٤٠ الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ.
- ٤٠ (مَنْ لَا يَعْرِفُ تَصَارِيفَ الْكَلَامِ لَا يَفْهَمُ الْقُرْآنَ)
- ٤٣ الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ.
- ٤٣ (الْقُرْآنُ لَيْسَ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ)
- ٤٨ الْقَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ.
- ٤٨ (لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ)
- ٥٧ الْقَاعِدَةُ الْعَاشِرَةُ.
- ٥٧ (الْقُرْآنُ نَزَلَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)
- ٥٨ أَسَالِيبُ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ.
- ٧٠ الْقَاعِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ.
- ٧٠ (الْقُرْآنُ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ)
- ٨٤ تَدَبَّرَ ١ -
- ٨٥ تَدَبَّرَ ٢ -
- ٨٦ تَدَبَّرَ ٣ -
- ٨٧ تَدَبَّرَ ٤ -
- ٨٨ تَدَبَّرَ ٥ -
- ٨٩ تَدَبَّرَ ٦ -
- ٩٠ تَدَبَّرَ ٧ -
- ٩١ تَدَبَّرَ ٨ -

- ٩٣..... تدبّر - ٩
- ٩٤..... تدبّر - ١٠
- ٩٥..... تدبّر - ١١
- ٩٦..... تدبّر - ١٢
- ٩٧..... تدبّر - ١٣
- ٩٨..... تدبّر - ١٤
- ٩٩..... تدبّر - ١٥
- ١٠٠..... تدبّر - ١٦
- ١٠١..... تدبّر - ١٧
- ١٠٢..... تدبّر - ١٨
- ١٠٣..... تدبّر - ١٩
- ١٠٤..... تدبّر - ٢٠
- ١٠٥..... تدبّر - ٢١
- ١٠٦..... تدبّر - ٢٢
- ١٠٧..... تدبّر - ٢٣
- ١٠٨..... تدبّر - ٢٤
- ١٠٩..... تدبّر - ٢٥
- ١١١..... تدبّر - ٢٦
- ١١٢..... تدبّر - ٢٧

- ١١٣ تَدَبَّر - ٢٨
- ١١٤ تَدَبَّر - ٢٩
- ١١٥ تَدَبَّر - ٣٠
- ١١٦ تَدَبَّر - ٣١
- ١١٨ تَدَبَّر - ٣٢
- ١١٩ تَدَبَّر - ٣٣
- ١٢٠ تَدَبَّر - ٣٤
- ١٢١ تَدَبَّر - ٣٥
- ١٢٢ تَدَبَّر - ٣٦
- ١٢٣ تَدَبَّر - ٣٧
- ١٢٤ تَدَبَّر - ٣٨
- ١٢٥ تَدَبَّر - ٣٩
- ١٢٧ تَدَبَّر - ٤٠
- ١٢٨ تَدَبَّر - ٤١
- ١٢٩ تَدَبَّر - ٤٢
- ١٣٠ تَدَبَّر - ٤٣
- ١٣١ تَدَبَّر - ٤٤
- ١٣٢ تَدَبَّر - ٤٥
- ١٣٣ تَدَبَّر - ٤٦

- ١٣٤ تَدَبَّرَ - ٤٧
- ١٣٥ تَدَبَّرَ - ٤٨
- ١٣٦ تَدَبَّرَ - ٤٩
- ١٣٧ تَدَبَّرَ - ٥٠
- ١٣٨ تَدَبَّرَ - ٥١
- ١٣٩ تَدَبَّرَ - ٥٢
- ١٤٠ تَدَبَّرَ - ٥٣
- ١٤١ تَدَبَّرَ - ٥٤
- ١٤٢ تَدَبَّرَ - ٥٥
- ١٤٣ تَدَبَّرَ - ٥٦
- ١٤٤ تَدَبَّرَ - ٥٧
- ١٤٥ تَدَبَّرَ - ٥٨
- ١٤٦ تَدَبَّرَ - ٥٩
- ١٤٧ تَدَبَّرَ - ٦٠
- ١٤٨ تَدَبَّرَ - ٦١
- ١٤٩ تَدَبَّرَ - ٦٢
- ١٥٠ تَدَبَّرَ - ٦٣
- ١٥١ تَدَبَّرَ - ٦٤
- ١٥٢ تَدَبَّرَ - ٦٥

- ١٥٣ تدبّر - ٦٦
- ١٥٤ تدبّر - ٦٧
- ١٥٥ تدبّر - ٦٨
- ١٥٦ تدبّر - ٦٩
- ١٥٧ تدبّر - ٧٠
- ١٥٨ تدبّر - ٧١
- ١٥٩ تدبّر - ٧٢
- ١٦٠ تدبر - ٧٣
- ١٦١ تدبر - ٧٤
- ١٦٢ تدبر - ٧٥
- ١٦٣ تدبّر - ٧٦
- ١٦٤ تدبّر - ٧٧
- ١٦٥ تدبّر - ٧٨
- ١٦٦ تدبّر - ٧٩
- ١٦٧ تدبّر - ٨٠
- ١٦٨ تدبّر - ٨١
- ١٦٩ تدبّر - ٨٢
- ١٧٠ تدبّر - ٨٣
- ١٧١ تدبّر - ٨٤

- ١٧٢ تَدَبَّرَ - ٨٥
- ١٧٣ تَدَبَّرَ - ٨٦
- ١٧٤ تدبر - ٨٧
- ١٧٥ تَدَبَّرَ - ٨٨
- ١٧٦ تَدَبَّرَ - ٨٩
- ١٧٧ تَدَبَّرَ - ٩٠
- ١٧٨ تَدَبَّرَ - ٩١
- ١٧٩ تَدَبَّرَ - ٩٢
- ١٨٠ تَدَبَّرَ - ٩٣
- ١٨١ تَدَبَّرَ - ٩٤
- ١٨٢ تَدَبَّرَ - ٩٥
- ١٨٣ تَدَبَّرَ - ٩٦
- ١٨٥ تَدَبَّرَ - ٩٧
- ١٨٦ تَدَبَّرَ - ٩٨
- ١٨٧ تَدَبَّرَ - ٩٩
- ١٨٨ تَدَبَّرَ - ١٠٠